

روايات عبير



مارجري لوت

# الماس إذا التهب!



## الماس إذا التهب!

بين الطموح والحلم علاقة خفية، كذلك بين القدر والحظ وفي هذه الرواية يلعب الطموح لعبة الوصول الى الحلم والقدر يهيء حظا سعيدا ، لكن لمن ؟

لتوني الفتاة الكادحة التي سرعان ما ترى نفسها وسط عالم الألماس والمجوهرات ، أم لأُمها التي نذرت حياتها لرجل فنان لم يأبه للعالم ولم يترك من سقط المتاع سوى لوحات مخبأة في كوخ ريفي ؟

أم لغاري الذي فقد زوجة لم يكن يحبها فعاد والتقى توني التي تشبهها الى حد بعيد أصابه بالتراجع والذهشة ...

بين دفتي هذه الرواية أقصى ما يمكن أن يصل اليه الطموح وأبعد ما يصبو اليه الحلم . لكن ليس الامر كله بهذه السهولة...



## ١ - مقابلة أم شجار ؟

ألت الآنسة بلاك عبر مكتبها نظرة على توني . وقالت:

مستكون وظيفه ممتازة، لشركة وارينز من أشهر شركات للمجوهرات، وعندما تذهبن للمقابلة غداً ستكون هناك أخريات من طالبات الوظيفة. وكذلك فإن الرجل الذي سيجري لك المقابلة ليس من السهل إرضائه. ومع ذلك فليس ما يمنع أن تجزي حظك... ما زلت حديثة السن حقاً ولكك قاهرة على شغل هذه الوظيفة. وألاً لما رشحتك لها... لقد عملت سنتين في وظائف مؤقتة وتقاريرك جيدة. وحين الوقت لتشغلي عملاً دائماً، خاصة وأنت تقولين أن والدتك... وحدثت توني في المرأة الأكبر سناً. وقد أحست بشيء من المفاجأة، فلم تكن تعتزم أن تذكر ذلك للآنسة بلاك وقالت:

نعم إلى حد ما.... فهي تعمل بالتطرين، وتتحمل أجر السكن سواً. وكنت الآنسة بلاك شيئاً على بطاقة دفعت بها عبر المكتب وابتسمت وهي تقول:

هناك... بالآنسة وارين وبالنسبة فإن اسمك يطابق اسم الشركة التي أُرشدك للعمل فيها وقد يكون هذا فالاً طيباً.

وخطر لتوني سؤال عما يكون عليه موقف الآنسة بلاك لو عرفت أن بنيامين وارين رئيس شركة وارينز للمجوهرات في شارع بوند ستريت هو عمها الأكبر. رغم أنه لا يعرف ذلك ولكنها كانت تشك في أن تهتم الآنسة بلاك بذلك.



ونبهت على قدميها كانت هبله ذات قوام جميل، يميل شعرها الأسود الى الاصفرار وتعبير ملامحها عن الاستقلال، وقالت:  
«أشكرك كثيراً يا أنسة بلاك، سوف أكون على اتصال دائم بك وسأخطر بك بما يحدث.»

وأخذت البطاقة التي تحدد لها موعد المقابلة ووضعتها بعناية في حقيبة يدها، وهبطت الدرج، وانطلقت في شارع أكسفورد.

كان الجو في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني يندثر بشتاء قاس والنهار شديد البرودة، وبدأ الثلج يتساقط، وسرعان ما وجدت توني نفسها تتدافع بالمناكب لتشق طريقها وسط الزحام، ولم تتوقف كعادتها لتلقي نظرة على نوافذ العرض الجلذابة. وكانت تفكر في أن تشتري هدية متواضعة لأمها ذلك الأسبوع.

شيء لا يكاد يصدق - على الإطلاق... من آلاف الشركات في لندن تختار الأنسة بلاك شركة وارينز لترسلها إليها، وفي الليلة السابقة فقط كانت أمها تقول:

«هل تعرفين يا توني، الذي أحساس غريب أن شيئاً سعيداً سيحدث.»

كانت السيدة وارين تجمع بين الأضداد فهي واقعية ولكنها تحلم دائماً بحياة أفضل. كان زوجها فناناً استولت عليه نزعة الفنية، وكان عليها أن تقبل بما لمرضه عليها، ولكن أحلامها ظلت تراودها طوال حياتها وكثيراً ما قالت لتوني:

«في يوم من الأيام سينال أبوك ما يستحق من تقدير وتعرض لوحاته في أشهر المعارض في العالم، وعند ذاك يعيش حياة جديدة فيها السفر، وفيها التعرف على المشاهير - ليس مجرد أن...»

وكان بوسع توني أن تكمل:

نقرر على أنفسنا، ونكدح طول الوقت.

ولكن أمها لم تكن تشكو، وكان شعرها الأشقر المزغب، وفمها الرقيق يتناقض مع طبيعتها الشجاعة الصارمة، لقد عاشت في كوخ صغير في ديفون حيث

الحياة الرخصة وحيث تزرع ما يحتاجه الأسرة من خضار في حديقة الكوخ الصغيرة، وكانت تصنع ملابس ابنتها توني وقليلاً من الملابس لنفسها وبعض ملابس زوجها، وتعمل كذلك في التطريز.

وعندما أكملت توني تدريبها في مدرسة السكرتارية في الثامنة عشرة من عمرها أصيب أبوها بقلعة برد وتحولت الحالة الى التهاب رئوي وعجزت سائر العقاقير عن انقاذ حياته.

ونفذ سهم القضاء، وناقشت توني وأمها ما ينبغي أن تفعلوا، وقالت توني: «بوسعي أن أجد عملاً في مدينة إكستر لنجد ما ندفع منه الأيجار ونعيش.»

لكن أمها رفضت بشدة وقالت:

«لا... لا بد أن نرحل من هنا فوراً ونذهب الى لندن.»

ولمست توني قائلة:

«لندن؟ كنت أظن أنك تحبين الكوخ والريف، وكل ما حولنا هنا...»

وأجابت السيدة وارين في بساطة:

«كنت أحب أبائك ولذلك وافقت أن أعيش معه هنا، والآن ينبغي أن أنتقل الى مكان آخر مختلف تماماً، الى حيث المحلات والأصواء والناس والأحداث، هل تفهمين ما أعنيه يا حبيبتي؟»

وأجابت توني:

«أعتقد أنني أفهم!»

«وهل تحضرين معي؟»

وعانقت توني أمها وهي تقول:

«بالطبع! سوف آتي معك، وسأحصل على عمل وتكون لنا شقة فخمة ونذهب الى المسارح والحفلات الموسيقية ونأكل في المطاعم الفخمة ايه يا لندن! اتنا في الطريق اليك.»

كان ذلك منذ عامين، ولكن الأمر لم يكن كما تصورتاه، فأعمال النسخ على الآلة الكاتبة كانت تدر دخلاً لا بأس به، والشقة التي وجدتاه في حي هورنس



مفرحة بقدر ما استطاعت السيدة وارين أن تجعلها ولكن الميزانية لم تكن تسمح بالذهاب الى المسرح أو الحفلات الموسيقية. وإن سمحت من حين الى آخر بالتردد على السينما مع زوجة عشق يحصلانها الى البيت بعد مشاهدة العرض. وواصلت السيدة وارين أحلامها...

وعندما خرجت توني من محطة تيون بايك لين وجدت الثلج يتساقط بكثافة أكثر ليتصق بشعرها ويهد طريقه الى عنقها. وخففت رأسها لتلا تواجه الرياح. وسارت في طريق غرين ليتز كانت طوال الطريق تحاول أن تتخذ قرارها فيما اذا كانت ستخبر أمها عن المقابلة المنتظرة نهار القدر... كانت تعرف ما يمكن أن يحدث لو ذكرت بعض الصدقة التي تجعلها تذهب في مقابلة عمل في شركة وارينز. سوف تطير الأم فرحاً من الدهشة وتخلق بأفكارها لتجعل توني شبيهة بسندريلا، تنتقل من عمل مكتبي قذر الى حياة تزخر بالعظمة والفخامة. ورأت انه من الأفضل ألا تصرّح بشيء حتى تنتهي المقابلة... أن لم يكن هناك خسران بأنها سوف تحصل على العمل بحال من الأحوال....

وتركت الطريق الرئيسي المزدهم لتسير في شارع جانبي هو شارع. نهات الأزاليا حيث تسكن ويمثل قماما شارع زهرة الربيع على أحد جانبيه، وشاع نهات السط على الجانب الآخر، بل يمثل سائر الشوارع الأخرى القصيرة المستقيمة التي تأخذ شكل مربع على الطريق الرئيسي.

وأدخلت توني مفتاحها في الباب رقم ٢٥ وهزولت تصعد الدرج الى أول باب يواجهها. وقررت لو أن أمها موقفة في عملها فسوف تحتفظ توني بنها المقابلة لنفسها أما اذا كانت الأمور سارت على غير ماتهوى فسوف تخبرها لترفع من روحها المعنوية.

وفتحت غرفة الجلوس. كانت السيدة وارين تجلس الى موقد الغاز تلقد بعض الخبز وبدا عليها التشاؤم وآلة التطريز تقع في ركن الغرفة هامدة تحت غطاء من البلاستيك. فلا طلب على العمل.

ولمعت عينا السيدة وارين «مع ذلك بدا على كثفها شيء من الوهن عرفت

توني أنه موقوت لأن أمها لا تتبل بالاكنتاب للثقة طويلة.

«أعلا يا عزيزتي ها هي ابتلاك الحبيبة... ملابسها مبتلة وتشعر بالمرع والتصب» وأبست توني وعانقت أمها التي نهضت حين فتح الباب. وواصلت تقول:

«أوه متأسفة... جعلت ملاسك تبطل من ملاسني»

ودفعت السيدة وارين شعرها الأشقر الناعم الى الخلف. وقالت:

«لا تقلقي بالأ، دعيني أخذ معطفك وحذاءك. واذهي لتبدلي ثيابك وستشرب الشاي فوراً»

دخلت توني غرفة النوم واستبدلت بملابسها بنظولناً وبلوزة فضفاضة وخطت شعرها. وأحست بالدفء والراحة والرضى عندما سمعت صوت الأطباق والملاعق والشوك من الغرفة المجاورة... وصوت الموسيقى الشعبية الذي يهيء من شقة مجاورة.

وعادت الى غرفة الجلوس ووجدت العربة الصغيرة المتحركة مستقرة قرب المدفأة وعلى كل من جانبيها كرسي عليه وسادة مريحة، بينما جثم على العربة ابريق شاي قصير وكومة كبيرة من الخبز المحمص المغطى بالزبدة وأطباق شهية من السك وكعكة الزنجبيل المصنوعة في المنزل.

وغاصت توني في أحد الكرسيين وصارت تتناول الطعام بشهية وهي تقول:

«هالك من يوم له»

وهزت السيدة وارين رأسها مازحة، وقالت:

«لأم أجد عميلاً واحداً يكلفني بعمل. حتى السيدة فيشر خيبت هني وكنت أعتمد عليها بكل كبير. ولكن ماذا عنك أنت؟ هل ذهبت الى الكنيسة بلالا؟»

وأومأت توني برأسها. وقالت:

«لذي مقابلة لعمل دائم غداً...»

«دائم؟ هل تقبلينه؟»



«قد أقبل... إذا كان المكان مناسباً. وبها لي أنه كذلك هذه المرة.»  
«شيء عظيم.»

وسكبت أمها الشاي وأعطتها الفنجان، وواصلت:  
«ما اسم الشركة؟ وأين مكانها؟»

وارتشت توني شيئاً من الشاي. وقالت وقد ارتست على فمها ابتسامة رقيقة:

«أحزري.»

وهزت أمها رأسها عاجزة عن الأجابة، فواصلت:

«قد تدهشين... فأن مقابلتي مع... مع... وارينز في هوتل ستريت»  
«وارينز؟ أنك لاتعنين؟»

«انتي أعني بالفعل شركة وارينز، أقاربنا الأثرياء.»  
وتفهمت توني وواصلت:

«ما رأيك إذن؟»

وأطبق الصمت على الأم لحظة، وشحب وجهها فجأة، ولكن بدأ الدم يعود متدفقاً الى وجنتيها، ولعت عيناها بالدهشة، وواصلت توني تقول:  
«ولكن لا تعولي على ذلك كثيراً، فالوظيفة ليست في يدنا بعد.»  
ولكن حملس أمها بلغ ذروته، وقالت:

«سوف تحصلين على العمل يا عزيزتي توني، أعرف أنك ستحصلين عليه أحسنت بهذا الشعور منذ أيام، قلت لك ان شيئاً طيباً سيفع ألم أقل ذلك.»  
وتنهدت في سعادة وواصلت تقول:

«كل سنوات الأمل والتشني، والآن مولد حياة جديدة لنا.»

«يا أمي، لا تفرفري في التفاؤل! ماذا لو أخفق كل شيء بعد ذلك؟»

وهزت السيدة وارين رأسها، وقالت:

«لا تحاولي يا عزيزتي! لا تزعمي ثقتي! أما عن طالبات الوظيفة الأخريات فما الذي يميزن به عنك؟ ثم لا بد أن أخبرهم أنك تحتين بصلة القرابة الى رئيس

الشركة فهذا في صالحك.»

وارتفع حاجبا توني، واتسعت عيناها الرماديتان، وقالت:

«أخبرهم! أعتقد أنك لا تظنين أنني سأفعل ذلك.»

وردت أمها في شيء من التأكيد:

«ينبغي أن أخبرهم! ليس ثمة خطأ أو شبهة في ذلك!»

«ولكن، لكن يا أمي، كنت أعتبر أن كل ما يقال عن أقاربنا الأثرياء مجرد مزاح.»

وتذكرت توني أيام عاشت في الكوخ بموارد محدودة للغاية والأب لا يبيع

لوحة من لوحاته لشهور عديدة، وكانت الأم تقول:

«لماذا لا تذهب الى عمك بنيامين في لندن يا فرانك؟ لا لتسأل منه، ولكن

بمجرد تعرفه بنفسك، فقد يبدي اهتماماً بعملك وربما يجعل إحدى لوحاتك تزين

مكتبه أو غرفة الاجتماعات، وعند ذاك يراها الناس، الناس الأثرياء ذوو النفوذ،

وربما يؤدي ذلك الى كثير من الارتباطات.»

وينسم فرانك وارين ويتحدث في صوت خافت ليقول:

«نعم يا عزيزتي، وتغطي القصة الى أن يكون للأقبال أجنحة تطير بها.»

وعند ذاك يضحكون، وتضحك مسرور وارين أكثر من الجميع، وخشيت

توني أن يكون الأمر بالنسبة الى أمها أكثر من فكاهة فسألته:

«أماماً أرجو ألا تكوني جادة.»

ومالت الأم في كرسيها الى الأمام، وقالت:

«انتي جادة تماماً يا حبيبتي! أريد لك أن تعيشي حياة أفضل من الحياة التي

عشتها.»

ولاذت توني بالصمت، وأحست بعيني أمها تتركزان في قلق عليها، لم يعد

صوت الموسيقى الشعبية من الشقة المجاورة في ذلك الوقت مألوفاً كما كان.

وهزت توني رأسها في حزم وقالت:

«لا أستطيع.»

«ولكن.»



«أنصتي يا أمي! المسألة ليست أنني متكبرة أو شاذة أو شيء من هذا القبيل. كل ما أعرفه أنني عندما أصل إلى هذه النقطة لا أستطيع».

وساد صمت آخر ثم ابتسمت السيدة وارين، وقالت:

«إنك مثل أهلك يا توني، حسناً إذا كان هذا رأيك فلن نتحدث في هذا الموضوع بعد الآن. ولكن ستذهبن لأتمام المقابلة، عديني بأنك ستذهبن».

وضحكت توني وقد أحست بالارتياح، وقالت:

«نعم، سأذهب للمقابلة وأعد بذلك، وسأبذل جهدي لأحصل على الوظيفة لأنها على ما يبدو وظيفة مناسبة».

وأومأت مسر وارين برأسها، وقالت:

«صرف تنتظر ونرجو خيراً بلأن الله، والآن - لتكلم في شيء آخر».

همل أحضرت الكتيبات الخاصة بالرحلة إلى اسكتلندا»

وأضيتا بقية المساء في حديث حول رحلة في عربة تجرها الجياد في اسكتلندا، وكان الحديث ملأه للأحلام كذلك. لأنه لم يكن من المؤكد أن تتاح لها الموارد للقيام بمثل تلك الرحلة.

وبدت على توني البهجة فقد ارتاحت لأن أمها تقبلت الموقف بالنسبة إلى المقابلة التي كانت تزعم إقامتها في اليوم التالي، وعندما نهضتا في النهاية لترفعا الأطباء، من المائدة عاتقت توني أمها وقالت:

«أشكرك على تفديرك لموقفي يا أمي. وسأبذل جهدي غداً».

أما أول مرة دخلت فيها توني إلى أحد محلات المجوهرات - حسبما تسعنها الذاكرة - فكانت عندما حضرت إلى لندن لأول مرة، وذهبت لتشتري لنفسها ساعة يد لتكسب رضى من تتعامل معهم من أصحاب الأعمال الذين يحرصون بصفة خاصة على ضبط المواعيد، وكان في محل المجوهرات ذلك صفوف من خواتم المخطوبة والزواج وضعت على رف زجاجي وكان على الرفوف كذلك أزرار قمصان ذهبية وأباريق زجاجية مطلية بالعدن خلف مجموعة منتقاة من ساعات التنبيه. وكانت تعرف أن شركة وارينز في شارع بوند ستريت لن تكون

شيئاً مشابهاً لذلك، وغطت إلى داخل يشبه إلى حد كبير كهف علاء الدين الحياي، كما كانت تتخيله في الليلة السابقة، وغاصت أقدامها في سجادة صغيرة فاخرة حسبت أنها لا بد أن تكون من الشرق الساحر، لم يكن هناك طاولة بمسند زجاجي وإنما كانت هناك طاولتان حفرت على قوائمها زخارف دقيقة وإلى جانبها كراسي صغيرة ذات أفرع غطيت بتنجيد من البروكار الأحمر وكما كسيت الجدران بالخشب بينما تدلت من السقف ثريا كريستال وفي أحد أركان الغرفة ساعة حائط كبيرة قديمة مطعمة، تدق في رفق. وأحدى السكرتيرات تجلس على كرسي في أنيقة بشعرها القصي، تلبس سترة قراء ثمين وعلى أصابعها خواتم ثقيلة، وأمامها بائع في أواسط العمر يلبس بذلة قاتمة ويعرض على المفروش القطني الأسود الذي يغطي الطاولة مجموعة من الدبايس وأحسّت توني بشيء من الحرج إذ كانت تلبس سترة عادية من الجلد. واستدارت إلى للشرف، وقالت:

«عندي موعد في الساعة الثانية عشرة، واسمي الأنسة وارين...»

وحقق الرجل فيها وقال:

«الآنسة آرن... وارين».

وابتسمت، وقالت:

«نعم».

وقال الحارس:

«أرجوك أن تنتظري هنا لحظة يا آنسة، وسأجد من يصحبك إلى الطابق العلوي».

وعاد معه امرأة نحيلة في بذلة أنيقة تلبس أرقاً مطعمة ببعض حبات اللؤلؤ الرقيقة، وسعت المرأة تنادها في صوت خفيض مهذب:

«آنسة وارين تفضلي معي».

وسارت أمامها من خلال فتحة مقوسة إلى غرفة أصغر شبيهة بالغرفة الأولى. وفي مؤخرة هذه الأخيرة سلم عربي له حاجز مزخرف يؤدي إلى ردهة مغطاة بالسجاد في الطابق العلوي، وعلى باب إلى اليمين لافتة حفرت عليها الكلمات السيد ج. ر. لورنس، وطوقت مرافقة توني الباب بخفة وجاء صوت من الداخل



يقول:

«أدخل!»

وأحسّت توني باضطراب عصبي في معدتها لقد تنقلت بين مكاتب النسخ على الألة الكاتبة وشهدت الكثير من أساليب تنظيم تلك المكاتب، ولكن لم يسبق لها أن شهدت مكتباً كهذا... لم يكن هناك شيء من جو الألفة الذي تعودته وبدا كل شيء محاطاً بالرسميات والتحليل كذلك أنه يغرق بشكل زائد في الأناقة... وتذكرت وعدها لأنها بأن تبذل جهدها لتحصل على العمل، وعليها الآن أن تتم المقابلة.

كانت الغرفة صغيرة أثبتت بمكتب ضخم من خشب الماهوجني جلس خلفه رجل يشغل بالكتابة بينما انتشرت على المكتب بعض الكتب والملفات والأوراق... وأحسّت توني بأن المكان ينقص شيئاً من الترتيب وزادت ثقتها بنفسها بعض الشيء.

وأخذت المرأة حزمة من الأوراق من على طاولة جانبية ووضعتها على المكتب، وقالت:

«هذه آخر طالبة للتوظيفة يا سيد لورنس.»

وأجاب في تشاغل، بدون أن يرفع رأسه:

«حسناً، أشكرك يا سيدة جنيز.»

وأشار إلى توني إشارة مبهمّة:

«أجلسي.»

واستمر في الكتابة، وانسحبت السيدة جنيز، وأغلقت الباب، وجلست توني تنتظر، كانت تعرف من خبرتها خلال عامين الأساليب التي تستخدم في المقابلة، فبعض المسؤولين عن المقابلة يظهرون مظهر ودي ويتيحون لمن يؤدي المقابلة أن يكون على سجيته... بينما يحاول آخرون أن يجعلوا من يؤدي المقابلة يحس بالقلق وعدم الارتياح ونقص الكفاءة. وهناك فئة أخرى صغيرة جداً تنظر نظرات خبيثة، وأخذت تفكر في الرجل الذي يجلس على الجانب الآخر من المكتب ومن أي فئة

يكون؟

لم تستطع من المكان الذي يجلس فيه أن تتبين تحديداً للامع وجهه ولكنه بدا أكثر شبهاً بما توقعت، في منتصف الثلاثينات من العمر يظهر حازماً بتكبيته العريضين وسترته الصوفية الرمادية. أما قميصه فكان من الكتان الأبيض المتزوج مع رباط عنق من الحرير الفرنسي الأحمر، وبدت أزرار القميص الذهبية تلمع في معصيه.

وطالت فترة الصمت، وواصل عمله في الكتابة وبدأت توني تشك في أنه من النوع الذي يعيش فيه أقاربها الأثرياء فلن يكون الجو الذي يلائمها بأي حال من الأحوال، وأحسّت بالرغبة في أن تنهض وتنصرف وكادت تفعل ذلك إلا أنه في تلك اللحظة بالذات رفع رأسه ونظر نحوها.

وحدث شيء غريب للغاية فقد استمر يحثق إليها، وحذقت توني تجاهه بالمثل، لم تكن ملامحه تدل على شيء ولو لم تكن تعلم أنه ليس بينه وبينها أية صلة سابقة لظنت أنه كان يحاول أن يتذكر صلة قديمة بينهما. كان كمن أصيب بشيء من الصدمة، وظنت أنه لا بد أن يكون لها شبيهة في مكان ما.

وبدا يتحسس الأوراق التي وضعتها السيدة جنيز على مكتبه بدون أن يحول عينيه عن وجهها، وأحسّت بقلق حقيقي... ثم حوّل بصره إلى الأوراق أمامه، وقال:

«أنت الآنسة وارين؟»

وابتسمت وقالت:

«نعم، مصادفة، أليس كذلك؟»

وعاود النظر إلى الأوراق وواصل يقول:

«أنت من طرف الآنسة بلاك وعمرك ٢٦ عاماً، أما عن خبرتك السابقة...»

ونظر إلى الأوراق على نحو سريع خاطف ثم أزاها جانباً وأسند ظهره إلى الكرسي، وقال:

«حسناً، يا آنسة وارين، يبدو أنك حضرت إلى هنا في مهمة فاشلة، وأعتقد أن



الآنسة بلال لا بد أن تكون أسدت فهم رسالتي. إذ أوضحت لها أنني أريد شخصاً أكبر في السن بخبرة أكثر مما لديك. فنحن نحتاج إلى موظف من نوعية خاصة للغاية، ولذلك فإني أسف.

وأصتت توني كأنه صلعها على وجهها ولم تكن تصدق كلمة واحدة مما قاله... لا... لا بد أنه أحس بكراهية لورينة لها لأنها ذكرته بشخص لا يريد أن يذكره.

ونصبت قائمتها وأصتت أنها لن تفقد شيئاً بعدما فقدت الأمل في الوظيفة. ولم تجد سبباً يمنعها من أن تجعله يعرف بصراحة رأيها. وبدأت تسأل:

«هل لي أن أسأل ما إذا كانت الوظيفة المعروضة هي وظيفة سكرتيرة لك؟»  
«نعم... كانت كذلك.»

وعند ذلك قالت:

«لأن لا داعي لأن تشعر بأي أسف، لأنه لو عرضت عليّ الوظيفة لرفضت قبولها بكل تأكيد، إن كل شيء هنا يبدو أنيقاً وعريقاً بدون شك، ولكنني أفضل أن أعمل في مكان أكثر الفة. لا يتركز العمل فيه حول الأثرياء. القلة المحظوظة.»  
قالت ذلك وهي لا تدرك أنها تردد ما كانت تسمعه عن أبيها كلمة بكلمة.  
ونفض السيد لورنس وقال في يروء:

«شيء يستحق الاهتمام، وأقترح أن تبحثي عن وظيفة تتفق مع ذوقك. ولا تضيعي وقتي أطول من ذلك.»

وابتسمت ابتسامة الانتصار إذ نجحت في تحدي ثقته ولو للحظة. وقالت:  
«أسعدت صباحاً، يا سيد لورنس.»

قالت في عذوبة، وخرجت من المكتب ترفع رأسها عالياً.

وهبطت الدرج، واجتازت غرفتي عرض المجوهرات، وحياتها الحارس الذي فتح الباب الزوجي الثقيل بقوله:  
«أسعدت صباحاً يا آنسة.»

وأومات برأسها في لباقة، وانصرفت. وخرجت إلى برند ستريت وأصتت بريح شديدة البرودة تلفح رسخي قدميها وهي ترتعد من الوهن في أعماق نفسها. وتوقفت للحظة بجانب نافذة عرض وارينز لتستجمع قواها. ونجحت في ذلك. وبحث عن منديلها، ونفخت أنفها واستدارت بعيداً تجاه بيكاديلي عائدة إلى بيتها.

ولم تكن قد اجتازت أكثر من خمسين ياردة عندما أدركت أن شخصاً ما كان ينادي اسمها بطريقة متكررة، وتوقفت لتجد حارس البوابة الذي يميل إلى كبر السن يجهد في إثرها يقول:

«آنسة وارين.»

قالها وهو يلهث، وشعره الخفيف تعيث به الرياح.

«آنسة وارين، من فضلك، السيد لورنس يرجوك أن تعودي، إنه يريد أن يتحدث معك مرة ثانية.»

وترددت توني بعض الشيء بينما كان المارة على الجانبين ينصرفون من حولها. كان البواب يعمل على ياقته اسم وارينز في حروف ذهبية مزخرفة ورأت أنه من الأسلم أن تستجيب له حتى لا يظن أحد أنها تفرّ بشيء مسروق، وقد أخذ بالفعل واحد أو اثنان من المارة بالنظر إليها نظرات استغراب. وهكذا اضطرت على مضض أن تعود إلى المحل. بعدما ظنت أنها قالت كلمة الوداع إلى الأبد لذلك الشخص الكريه السيد لورنس.

وأخذت تفكر فيما عسى أن يريد منها؟



شخصياً لأذكرك بصلة الدم. وأعتقد أنه حان الوقت لنسى خلافاتنا العائلية بعد هذا الوقت الطويل ولعلك توافقني على ذلك.

المخلصة:

مارغريت وارين

وأقلت توني بالرسالة وقالت في صوت خفيض:

«أنا أسفة لهذا، أخطأت أُمِّي بأن كنتيك اليك بدون أن تخبرني.»

كان الرجل المهيب ينظر إليها في اهتمام، وحول بصره إلى الرجل الواقف إلى جوار المدفأة وقال:

«موضع لي يا غرانت لا أكاد أفهم شيئاً، هل جاءت الأنسة وارين لتشغل وظيفة السكرتيرة؟»

«بالضبط يا سيدي.»

«كنت تخبرني لما المقابلة عندما فضضت الرسالة وأرسلت اليك أطلب رؤيتها؟»

«اتفقنا أنها أرسلت إلى الوظيفة خطأ، وكانت قد انصرفت.»

ودهشت توني لذلك التحوير الجريء للحقيقة، ورفعت بصرها لتجد غراي ينظر إليها كأنه يتحدثها أن تنكر ما قاله فاستولى عليها انفعال بالغضب والتفتت إلى السيد وارين تقول:

«هذا ليس صحيحاً فليس ثمة خطأ في تقديمي لهذه الوظيفة. ولقد واجهني السيد غراي لأول وهلة بأنني ضيعت وقتي بحضوري وأنتي لست على الإطلاق من يريد.»

كان وجهها الأشقر المائل إلى السمرة يتحدث في ثقة وعيناها الصافيتان تلمعان في غضب.

«ابسم ابسمامة جافة قاتلاً!»

«تحدثين كمعضو في أسرة وارين تماماً.»

«واصل يقول:

«اصفحي عن الطيش يا عزيزتي، أعترف أنني أشعر على الأمل أنني لست

## ٢ - لأنها تشبه زوجته!

لم تؤخذ توني في هذه المرة إلى مكتب الطابق العلوي، بل إلى غرفة خلف قاعة بيع المجوهرات، ووجدت السيد لورنس يقف إلى جوار المدفأة في ثوب من اللامبالاة، بينما نقلها جو الغرفة إلى العصور التاريخية...

وقريباً من المدفأة كان كرسي له ظهر مرتفع جلس عليه رجل مهيب يميل إلى كبر السن، تصوّرت توني أنه بنيامين وارين عاهل الأسرة التي تركّزت حولها أمانى أمها في الثراء. شعره أبيض ورباط عنقه حريري يبرز منه دهب ذهبي، ولحية بيضاء سويت بعناية ومونوكل يتدلى حول عنقه وعيناه رماديتان صاليتان فيها شبه كبير بعيني أبيها. وقال في صوت رقيق مهذب:

«أنت الأنسة وارين؟ اجلسي! أحضر لها كرسيّاً يا غراي!»

وأحضر لها الكرسي فتمتعت بالشكر، وواصل الرجل المهيب يقول:

«والآن يا أنسة وارين... ربما يمكنك أن تشرحي لي هذا...»

وأخذت توني ورقة أعطاها أياها ونظرت فيها وبدأ عليها فجأة شيء من الشك الفظيع فقد قرأت بخط أمها رسالة تقول:

عزيزي السيد وارين،

إنك لا تعرفني، ولكنني أرملة فرانك وارين ابن أخيك الذي مات في إيطاليا منذ سنوات. قررت أنه ربما يمكنك أن تعلم أن ابنتي أنطونيا وهي الابنة الكبرى لحفيذة شقيقك ستجري مقابلة اليوم مع مدير أعمالك، وهي تحس بحرج كبير يمنعها من ذكر علاقة القرابة التي تربطنا، ولذلك أكتب اليك



العضو الأخير في أسرة وارين كما كنت أظن.

وانجحت توني تجاهه قائلة:

«إذا فأنت تعتقد في صدق الرسالة، كنت أخشى أن تظن أنني مدعية.»

«ولم لا أصدق؟»

كان صوته رقيقاً، وواصل يقول:

«إن وجه الشبه واضح بدرجة كبيرة، ولعلك رأيته يا غراي؟»

ورأت توني النظرة التي تبادلها الرجلان، كانت نظرة مليئة بالمنعس ولم

تستطيع أن تفهم كل ما تعنيه، وعلقت غراي لورنس قائلاً:

«أوه! نعم لقد رأيته»

وأخذت توني تخمن من يكون ذلك الشخص الشديد الشبه بها الذي جعل

لورنس يتخذ منها ذلك الموقف، وعاد إليها الحرج أقوى مما كان للمذا كبت

أما تلك الرسالة؟ لم يكن في نظرها ثمة أمل يرجي من محاولة إحياء علاقة قرابة

اندثرت منذ زمن بعيد، فقد مضى أكثر من خمسين عاماً على المشاجرة التي جعلت

جدها يترك الأسرة وكان عالم بنيامين وارين عالماً يختلف تماماً عن العالم التي

تعيش فيه هي وأما الآن.

ونفضت في شيء من التهور واصطنعت ابتسامة وهي تقول:

«أشكرك لأنك صدقتني وأسفة مرة أخرى لتجروا أمي على الكتابة اليك... لقد

أبدت كرمًا زائداً تجاهي ولكنني لا أطمع في أن تحظى تلك القرابة البعيدة

باهتمامك، وإذا أذنت لي فإني أنصرف وأكرر شكري.»

وهز بنيامين وارين رأسه وقال:

«أنتك تتحدثين في لياقة تامة يا عزيزتي ولكن كلامك غير صحيح على الإطلاق.

فالحنق أنني أحس باهتمام زائد للغاية بك والعلاقة بيننا ليست علاقة بعيدة على

الإطلاق، هل يحظر لك أنني لا أريد أن أعرف أخبار أخي - جدي - الذي هجر

الأسرة في يوم من الأيام وكاد يحطم بذلك قلب أمي لأنه رفض أن يأخذ مكانه

في عمل الأسرة؟ هل خطر لك إحساسي بالأسى عندما جأمتنا الأخبار بأنه فقد في

الحرب الأولى وأنتي بعد وفاة أبي لم أبلل أنفسي بجهدي لأستكشف ما إذا كان

على قيد الحياة؟ أما زلت تتخيلين أنني لا أريد أن أعرف عنك كل شيء يا

أنطونيا؟»

«أ... آسفة... لم أكن أنظر إلى الموضوع هكذا.»

وجلست على حافة الكرسي من جديد، وقالت:

«أرجوك أن تسألني ما شئت من أسئلة وسأجيب بكل ما أعرف، ولكنني لم أزل

جدي، فقد مات قبل ولادتي.»

وأرأى بنيامين وارين وقال:

«نعم... نعم... بالطبع... ولكن هناك أشياء أخرى... أشياء صغيرة.»

وخفت الصوت الرقيق وأخذ يتطلع إلى الساعة النحاسية فوق رف المدفأة ثم

إلى الرجل الواقف إلى جوارها. وقال:

«إنني أنتظر مكالمة من بولستون في باريس خلال دقائق يا غراي، وبعد

ذلك سأكون حراً لمدة ساعة تقريباً.»

إستدار إلى توني يقول:

«يسعدك أن تعبريني بعضاً من وقتك! أم لديك عمل تريد أن تذهب إليه؟»

«أنتي خالية حتى الواحدة والنصف.»

«حسنًا... وإذا فاسمحي لي أن أدعوك إلى وجبة متواضعة في مطعم صغير ليس

بعيداً من هنا حيث نجد فرصتنا للحديث... غراي! خذ أنطونيا إلى مطعم

كارولي وسألتقي بكما»

«بكل تأكيد... تفضل يا آنسة وارين»

ونفضت توني وعيناها تتجولان بينه وبين الرجل المهيب الجالس على

الكرسي، أما بنيامين وارين فكان يبتسم ابتسامة مشجعة، وقال:

«أذهب معي يا عزيزتي»

وتبادل الرجلان نظرة لم تترك توني مفزاهها، ثم وجدت نفسها في غرفة بيع

المجوهرات تسير إلى جانب غراي لورنس وتحس باحساس لم يسبق لها أن



أحست بمثله، لو أنه فقط تحدث بشيء يزيل عنها التوتر، ولكنه كان يسير كأنه مالك المكان، وربما كان كذلك بطريقة ما، فقد كان بنيامين وارين يستشيريه ويعتمد عليه دائماً، وأحسّت بأنه رجل بغيض. وأختلست نظرة إليه جعلتها تحس بأن سترته صارت موضحة قديمة وأن حذاءه وقفازيه وحقائبه يده كانت متواضعة للغاية غير أن الشيء الوحيد الذي لم تدركه أنه يسير في رشاقة طبيعية يرفع رأسه فوق العنق النحيل. ولم تكن تدري كذلك أن أية امرأة تحسد ساقيه الطويلتين النحيلتين وبشرته الصافية وعينييه اللامعتين كالبلور الصافي.

وتوقف غراي لورنس عند الباب وخاطب المحارس قائلاً:  
«بيش! أرجوك أن تخبر السيدة جينز أنني سأغيب بعض الوقت وإذا جذ ما يستدعي الاتصال بي فائني في مطعم كارلي»  
ولس بيش قبعته، وفتح الباب الزجاجي الثقيل وهو يقول:  
«سحاً وطاعة يا سيدي»

وخرجاً إلى شارع بوند ستريت وقال:  
«من هنا...»

ووضع يده أسفل مرفقها ليوجهها إلى اليمين، وأخذاً يجتازان بين زحام المشاة والواقفين أمام نوافذ العرض، وأحست بأصابعه تصفط على ذراعها وقتت لو أزاح أصابعه بعيداً وأحسّت بالضيق عندما أصر على وضع يده على ذراعها فجعلت خطوها يهبطه ولكنها اصطدمت بسيدة سمينة قادمة من الاتجاه المضاد، واضطرت إلى الاعتذار، وجذب ذراعها من جديد وهو يقول:  
«ما هذا الذي تفعلينه؟ أتريدن أن يقع كلانا على الأرض؟»

وسارا في حرسيق، وضعنا الدرج إلى قاعة استقبال صغيرة مريحة حيث يادره مضيف يرتدي سترة بيضاء بالتحية، وقال:

«صباح الخير يا جيوفاني، سوف يحضر السيد وارين خلال دقائق وأثناء ذلك أحضر لنا بعض الشراب»

واستدار إلى توتي يقول:

«ماذا تفريين؟»

لم تكن توتي قد تعودت على تلك الأجواء حيث تقدم المشروبات قبل وجبة الظهيرة، وقالت:

«ليستأخذه من فضلك»

وارتفع حاجبا غراي بعض الشيء، وقال:

«يمكنك أن تطلبي شيئاً أفضل من ذلك... أعملي خيالك يا عزيزتي»

وكررت في حزم وهي تبسم:

«ليستأخذه»

انحنى المضيف قائلاً:

«بالتأكيد يا سيدي»

وواصل يقول:

«ومشروبك المعتاد يا سيدي»

وقادها إلى طاولة صغيرة وضعت بجانبها مقاعد وثيرة، وانصرف وبدأ غراي لورنس يقول:

«انك تلعبين دورك بطريقة ماهرة، هل تخلفين سترتك؟ سيكون الجو شديد الدفء داخل قاعة الطعام»

وفكرت في الرقص رغبة في الاعتراض، ولكن الجو كان شديد الدفء وحلت أزرار سترتها الجلدية فأخذها عن كتفها بطريقة تكشف أنه يحذق صحة النساء.

وبدأت تسترخي في المقعد الوثير على أمل أن يجلس في المقعد المقابل ولكنه جلس إلى جوارها ومدد ساقيه أمامه، وقال متأملاً:

«نعم انك تقومين بالدور بمهارة كاملة»

وردت توتي في صلاة، «لا أعرف عما تتحدث»

وتشدد يقول:

«دور ذلك البريء الصغير بعينييه الواسعتين...»

وأومأ بالشكر لجيوفاني الذي وضع المشروبات على المائدة، وواصل:



فأنا لا أؤمنك... لا تقني ذلك؛ إنني شديد الإعجاب بالطريقة التي خطت بها كل شيء. كم طال أنتظارك لفرصة العمل مع شركة وارين وكيف حصلت على توكية من الأستاذ بلاك؟ ثم تلك الرسالة التي وصلت من أمك في الوقت المحدد بالضبط واعتقد أنها جاءت باليد وكان هناك احتمال بأن ينتهي كل ذلك إلى شيء.

وجدت توني تجاهه وهي لا تكاد تصدق وقالت:

«هل تعني أنني دبرت كل ذلك لأقنع السيد وارين؟»  
«لماذا لا تقولين العم بنيامين؟»

ظلم في شيء من السخريه وهو يتناول كأسه. ولعل عيناها في برود، وقالت:  
«حسناً العم بنيامين، إنه عمي رغم كل شيء، إنه عمي الكبير.»  
ونظر إليها في شيء من التحقير وقال:  
«هوتقدمت بطلب العمل إلى الشركة وكأنك لا تطمعين في أي شيء... أوه إنك حلقة الذاكرة.»

والتفت إليه قائلة:

«إنك تخطيء، أنا لا أعتقد أنني حلقة الذاكرة، لم تكن هناك مزامرة ولم أكن أعرف أن أمي كتبت تلك الرسالة وعندما تركتك كنت اعتمد الانصراف وعدم الاقتراب من وارينز ثانية.»  
وأضافت في مراوغة:  
«وليتني ما رجعت.»

وقال لورنس في رقة:

«لا تقول ذلك! فكّرني في بنيامين! لقد أحس بسعادة غامرة لاكتشافه تلك القرابة المجهولة.»

ونظر في كأسه وواصل يقول:

«الشيء الذي يعبرني هو التوقيت؛ لماذا لم يشر هذا الموضوع قبل الآن؟ في السنة الماضية مثلاً، أو التي قبلها؟»

واندلمت توني انفعالاً مفاجئاً بالغضب جعلها تنفجر قائلة:  
«سامع يا سيد لورنس، أهديت منذ اللحظة الأولى كراهية شديدة تحسني ووجهت إليّ الاتهامات بدون أن أفهم سبباً لذلك وإذا كنت لا تطبق الانتظار معي لمستك أن تتصرف وتركتني وحدي.»

وانفجر ضاحكاً بطريقة أثارت كدوها الشديد، ورفع كأسه تجاهها قائلاً:  
«إيرافوا إنني أقدر الفتاة المتحمسة، ولكنك أخطأت فهمي، فأنا لم أكرهك على الإطلاق بل على العكس لو كانت الظروف مختلفة لأحببتك كثيراً.»  
وجدت تجاهه للحظة بالجرأة التي كان يحدق بها وعندما أحست بالحرارة تسري في وجهها حولت بصرها بسرعة. وبدأ أنه لاحظ الاضطراب المفاجئ الذي اعتراها وأرتعش فمه وهو يقول:  
«ولعل القدر شاء أن يرى كلانا الآخر كثيراً فلن أتصدى بالاعتراض ضدك، وأعترف لك إنني قررت عندما رأيته لأول مرة أن أتخلص منك بأسرع ما يمكن.»  
وأكملت توني:

«وبأقصى ما يمكن من الوقاحة، هل لي أن أعرف لماذا؟»

وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الضئيلة الساخرة من جديد وهو يقول:  
«هل كنت وقحاً؟ إنه أهال بدر مني؛ يمكنك أن ترديه إلى المفاجأة فإن بينك وبين زوجتي درجة كبيرة من الشبه ولم أكن أظن أن أراك قريباً مني، بل إن مجرد أنك تحلين اسم وارين يكفي لي يجعلني أراجع كانت زوجتي أيضاً من أسرة وارين حبيبة بنيامين وارين.»

وجدت توني تجاهه تسأل في تعثر:

«وكانت؟»

وعلق قائلاً:

«نعم لقد قتلت في حادث سيارة في ميدج منذ أكثر من سنة.»

ولمست قائلة:

«أوه، إنني أسفة.»



«لا داعي للأسف! فأنت لا تعرفينها على الإطلاق وستكون الظروف في صالحك.  
فسوف يرى فيك بنيامين هدية من السماء لأنه كان يحبها كثيراً»  
وألقى بالكأس. ونهض يقول:

«ها هو قد وصل وسوف تستريحين مني... وأصلي القيام بدورك»  
قالها في سخرية واضحة وأحني رأسه من باب الرسميات والتفت ليغادر قاعة  
الطعام وتوقف في طريقه ليتحدث إلى بنيامين.

ظلت توني ترتب الرجلين وهما يتحدثان وأحست أنها يشكلان ثنائياً.  
فالرجل الأكبر سناً متأنق كجيله السابق برباط عنقه والمونوكل. أما غراي  
لورنس فيمثل الجيل الحاضر أو على الأقل إحدى شرائحه الاجتماعية في زيه  
الأنيق وقميصه الأبيض المشرج وبشعره المشط بعناية.

ونظر الرجلان إليها وابتم بنيامين ورفع يده للتحية وجاء المقدم وانصرف  
غراي. وبعد حوار قصير مع جيوفاني مشى بنيامين وابتداً عبر قاعة  
الاستقبال إلى حيث جلست توني. وقال:

«أرجو أن يكون غراي قد قام بالواجب يا عزيزتي. فقد استغرقت المكالمات وقتاً  
أطول مما كنت أتوقع وأخشى أن تؤخرك عن ارتباطاتك. هل أنت مستعد يا  
جيوفاني؟»

وجدت توني نفسها في قاعة الطعام الصغيرة المجاورة لقاعة الاستقبال  
حيث يعبر كل شيء عن الأبهة والفخامة وبدأ لها ذلك تذكيراً لا مبرر له.

وجلس بنيامين على الجانب الآخر من الطاولة يبتسم وقال:

«إنه شيء يدعو للسرور أن يستضيف الإنسان شابة جميلة وخاصة عندما يتضح  
أنها الحفيذة الكبرى لشقيق طال الوقت على فقدائه. لقد طلبت أصناف الطعام  
لكلينا يا أنطونيا وبالنسبة إلى فياني أفضل الأطعمة الملائمة وأرجو أن يعجبك  
لحم البط الصغير مع الشمام الذي يقدم أولاً بالإضافة إلى أحد أطباق كارلي  
فيها بعد».

وقامت توني تقول:

«سيكون لذيقاً».

وكان كذلك بالفعل بل كانت أذ أكلة تناولتها وأحست بلحمة عطف أبوي في  
صوته. ووجدت نفسها تتجذب إليه.

وبدأ الناس يدون على قاعة الطعام ومعظمهم ممن يتم مليسهم وسلوكهم عن  
الثراء. واصطحب واحد أو اثنان منهم سيدات أنيقات وحرص الكثيرون منهم  
على محبة بنيامين كأنه من مشاهير رجال السياسة وإستمتعت توني بذلك.  
فقد بدا معها الكثير شخصية مرموقة في غرب لندن. وكان بنيامين يركز  
اهتمامه على توني وقام بدور المضيف الممتاز فجعلها تحس بالارتياح الكامل.  
وعندما جاء دور القهوة أحست بالاسترخاء وبالحلو الكامل من القلق. وعندئذ قال  
بنيامين:

«والآن يا أنطونيا... حدثيني بالتفصيل عن أسرتك».

وحدثته بكل ما يشير اهتمامه فقالت:

«وأعرف أن جدي - شقيقك - تزوج من سيدة هولندية بعد الحرب العالمية  
الأولى. توفيت بعدما ولدت أبي. وكان أبي يتحدث عن طريقة تربية أبيه  
ليكون ثنائياً مثله وكيف كانا يتجولان معاً في أوروبا ليريا اللوحات العجيبة  
والنحت والمباني. لم يكن لها بيت خاص طوال حياتها. وأعتقد أن أبي لم  
يحصل على أي قدر من التعليم - أقصد التعليم المدرسي وكان يمزج ويقول: أنه  
لا يستطيع أن يجمع اثنين واثنين. ولكنه كان يتحدث في الأدب والفلسفة  
والموسيقى والفن. وأعتقد أنه تعلم ذلك خلال مصاحبته لأبيه طوال الوقت.  
وسمعت أبي مراراً يقول: إن أباه لم يكن خريصاً على المال بل ربما كان يحترق  
النقد مما يبدو شيئاً غريباً لي».

وعلق بنيامين وأرين:

«ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلي... اكمل».

«الحق أنني لا أعرف أكثر من ذلك. كان ذلك قبل مولدي بزمان طويل».

وسأها في صوت خفيض.



هل تعرفين كيف لقي جدك حتفه؟

ولا، ولكنني أعرف أن أبي كان معه، وكان يقوم على تخريضه وأن ذلك حدث في روما. وبعدها ذهب أبي إلى باريس ليحصل في رسم اللوحات وهناك قابل أمي وتزوجها. وقبل الحرب مرض أبي وكان عليه أن يعيش في منطقة ذات هواء متجدد؟ فرجعا إلى لندن ليعيشا في كوخ صغير في منطقة دبلون حيث ولدت، وأعتقد أن مولدي كان مفاجأة لها.

وهل ما زال أبوك هناك؟

وبدا عليها الحزن، وقالت:

«لا بالطبع مات أبي منذ أكثر من عامين بقليل وعند ذاك حضرت مع أمي إلى لندن. كانت تتنص دائما أن تعيش في لندن حيث فرصة العمل أيسر وهذا هو كل شيء... هل هذا ما أردت أن تعرفه؟»

وأخرج بنيامين مندبلاً أبيض مطويًا من جيبه وأخذ يقوم بتلميع زجاج المونوكل في تباطؤ وأعاد المندبيل إلى جيبه وقال:

«أشكرك يا أنطونيا ولن أستطيع بحال أن أجعلك تفهمين مدى ما تعنيه هذه المقابلة لي كأنني بها استعيد خيلاً من شبابي. كنت وأخي لا نفرق وأصبحت بصدمة قاسية عندما اختلف مع أبي ورفض أن يشارك في عمل الأسرة وتركها ليصبح فناناً، ولم يكن بوسعي عند ذاك أن أفعل شيئاً لأمنع ذلك وكان أبي يتصرف في الأسرة كأنه حاكم مستبد.»

وصمت لحظة قصيرة، وقدرت توني أنه كان يعود بذكرياته إلى الماضي البعيد ونسي أنها تجلس أمامه وسرعان ما رفع رأسه يقول:

«اعلنيني! والآن حدثيني عن نفسك»

«أنا لا أستحق هذا الاهتمام، عمري ٦٦ عاماً، وتدرت كسكرتيرة وأعيش مع أمي في شقة في حي هورنسي، عملت خلال العامين الأخيرين في وظائف مؤقتة في لندن... هذا كل شيء.»

ولمعت عيناه، وقال:

«هذا وصف مختصر جداً، وماذا عن صداقاتك؟ انك جميلة للغاية ولا يعقل ألا تكون لك صداقة من بين الشباب.»

«هذا إطرأ منك؟ ولكن ليس لي صديق بذاته، كان هناك أحدهم في دبلون لشأننا معاً وكنا نذهب إلى المدرسة سوياً، ولكن أبويه هاجرا إلى استراليا ورحل معها، وهكذا انتهت علاقتنا. ومنذ أن حضرت إلى لندن لا يوجد شخص معين.»

واستمتعت غير المائدة تجاه بنيامين وقالت:

«أعتقد أنني أنتظر أمير الأحلام.»

وكان الغريب في تلك اللحظة بالذات أنها رفعت بصرها لتجد غراي لورنس يهجه إليها وقد قطب جبينه، وعندما وصل إلى المائدة نظر إلى بنيامين ثم نظر إلى توني وفي عينيه تعبير غريب عابث.

ونظر بنيامين إلى غراي قائلاً:

هل جد جديد - يا غراي؟

«اتصل بولستون منذ لحظة للمرة الثانية يا سيدي ويبدو أنه قلق بخصوص عقد الإيجار ويقول انه يريد قراراً نهائياً في موعد أقصاه القصد، وفكرت في إخطارك على الفور فربما تكلفني بجمع بيانات أخرى.»

وتهد بنيامين وقال:

«العمل! ألا أستطيع أن أصطحب فتاة في أحد المطاعم بدون أن - يقطع عليّ

العمل ذلك.»

ونظرت توني إلى ساعتها وقالت:

«أعتقد ينبغي أن أنصرف الآن وإلا تأخرت على عملي.»

«هكلا يا عزيزتي! لذا سيدرك غراي سيارة أجرة، هل أعددت لها السيارة يا غراي؟ سوف تلحق بك أنطونيا.»

ونبهت توني ونهض بنيامين كذلك وأمسك بيديها وهو يقول:

«انك لا تعرفين يا طفلي العزيزة كم كانت هذه المفاجأة سارة لي، وانتى أطلع إلى



الاحتفاء بك في منزلي قريباً بعيداً عن جو العمل هذا».

وتراجعت الى الخلف قليلاً اذ لم تكن قد تهيأت لذلك، كانت تعتقد أنها بعد أن أخبرت بنيامين بكل ما تعرفه عن أخيه الذي توفي منذ زمن طويل لن يكون بحاجة الى الاهتمام بها بعد ذلك. ولم تكن هي بدورها راغبة في أن توثق صلتها بالسيد وارين الى أبعد من ذلك، لم يكن عالم الثراء عالمها ولم تكن حريصة على أن تنتهي اليه. وقالت:

«انه لفضل كبير منك أن توجه الى الدعوة وأشعر بشيء من الشكر اذ أخبرك أنني مضطرة للرفض، ولكنك قد تقدر أننا، أمي وأنا، تعيش حياة هادئة للغاية، لم نعتد كل هذا النمط من الحياة... لقد استمتعت بمقابلتك للغاية وبدعوتك لي الى الطعام وبكل شيء».

وابتسم ابتسامة لطيفة تدل على الفهم، وقال:

«ولكنك بهذا تكونين سندريلا التي تعترض».

وأومأت وقالت:

«أرجو ألا تتضايق... كنت كريماً ورفيقاً معي... ووضعت يداً على فرائعها وقالت:

«أشكرك يا مستر وارين وأرجو أن...»

وتذكرت فجأة المرأة التي قتلت، وهي الحفيدة التي قال غراي لورنس ان

بنيامين كان يحبها، وواصلت تقول:

«أرجو أن تسعد في حياتك».

وأحسّت بالفعال جعلها تمنحي وتقبل وجنته، وهست:

«وداعاً».

وغادرت قاعة الطعام.

كان غراي لورنس يقف خارج المحل والى جواره سيارة تكسي تنتظر ومحركها يدور، وفتح لها باب السيارة، وقال:

«الى اللقاء يا أنسة وارين، ليس لدي شك في أننا سوف نتقابل قريباً».

ورفعت رأسها في ثقة تقول:

«ليرتج بالك! رفضت بحزم دعوة عمي الرقيقة لزيارته، وسيكون هذا الحسن الحظ لقلوبنا الوحيد».

وصعدت الى التاكسي، وقالت:

«وداعاً يا سيد لورنس».

واستدار السائق يسألها:

«الى أين يا أنسة؟»

وأعطته عنوان أحد مكاتب التأمين في المدينة وشق التاكسي طريقه بدون أن تنظر الى الوراء، وأحسّت بشيء من الأسف لأنها لن ترى عمها الكبير بنيامين مرة أخرى وإن كانت قد أحسّت بارتياح كبير لابتعادها عن لورنس البغيض، تولفت توني وهي في طريقها الى البيت لتشتري بعض الأزهار هدية لأمها، فقد ضاعت فرصة العمل ولم يعد هناك أمل من وراء المفاصلة وخشيت أن تصاب أمها بشيء من الاحباط لذلك النهاية لأحلامها

وما كادت تفتح باب الشقة حتى أحسّت بأن هناك بعض التغيير... كان وعاء الزهور يزخر بأعداد كبيرة من القرنفل الأحمر تحيط بها أوراق المرخس، وعين جو الغرفة برائحة القرنفل وقد تخللتها بقايا من دخان السكاير، ولحقت على الطاولة الصغيرة المجاورة للصدفة بقايا شاي قدم لشخصين.

وجاءت السيدة وارين من المطبخ ولدها حمرت وجنتاها والمجهت اليها توني

تعانقها، وتقدم اليها زهور شقائق النعمان التي أحضرتها وهي تقول:

«أحضرت لك هذه يا ماما ولكن يبدو أنه لا حاجة بك اليها».

وأجابت أمها:

«أشكرك يا عزيزتي! انها جميلة للغاية... سأذهب وأضعها في ماء...»

وسارت توني في اثرها الى المطبخ تقول:

«من كان عندك من الضيوف يا ماما؟ أعتقد أنني يمكن أن أحزوا».

وابتسمت السيدة وارين في سعادة قائلة:

«نعم تستطيعين أن تحمسي يا عزيزتي، كان هنا السيد بنيامين وارين بنفسه،



وجاء في سيارة ليموزين. ولحسن الحظ كنت قد فرغت للتو من غير الكعكات التي تفضلينها. وقد أحبها بنيامين... وطلب مني أن أناديه باسمه بلا ألقاب.»  
وحملت المزعجة إلى غرفة الجلوس ووضعتها على رف الموقد ووقفت تنظر إليها في اعجاب.

وغاصت توني في أحد الكراسي وقد بدا أن أحداث ذلك اليوم كانت فوق طاقتها. وقالت في وهن:

«لم يقل لي أنه سيجيء لزيارتك»

«لا، أعتقد أن الزيارة خطرت له فجأة. وأخبرني عن اصطحابه لك إلى المطعم! انه معجب بك جداً يا توني وظل يردد لي اعجابه بك وكيف أنه مسرور لأنك قدمت نفسك إليه.»

وقالت توني في ببطء:

«لم أفعل ذلك بالضبط يا ماما - إنما أنت التي فعلت ذلك. وكنت أفتنى لو لم تكتبي تلك الرسالة وتسليمها إليه بدون أن تخبريني إذ وضعتني في موقف محرج تماماً.»

وتجاهلت السيدة وارين ذلك التأييب فقد كانت في أوج سعادتها وقالت:  
«انه ليس كما تصورته على الإطلاق... كنت أظنه رجلاً قاسياً متعبر القلب كرجال الأعمال ولكنه غير ذلك بالمرة... مهذب وسلم بل بالفعل يمثل الأصالة وكرم الاصل.»

وتنهدت في سعادة وواصلت تقول:

«محدثنا في أشياء كثيرة - وكان شغوفاً بأن يعرف الكثير عن عمل أبوك، وطلب أن يعرف كل شيء عن حياتنا في الكوخ، وعندما أخبرته أن القسيس قبل عن طيب خاطر أن يحزن اللوحات تحت سطح المنزل قال أنه سيذهب إلى ديفون في يوم من الأيام ليراها. أليس ذلك شيئاً لطيفاً؟»

وقامت توني:

«لطيف للغاية.»

واصلت الأم تقول:

«وأخبرني بكل شيء عن أسرته وهو يعيش وحده الآن... أليس غريباً أنك تشبهين تماماً حفيدته؟ بأثر تربيتها منذ كانت في سن الطفولة المبكرة عندما مات أبوها فقد راحا ضحية كثلة جليدية وهما يمارسان رياضة التزلج في النمس. وللأسف قتلت هذه الحفيدة في حادث اصطدام سيارة منذ عام أو عامين. يا لها من مأساة! هل تصدقين يا توني أنه يشعر أنك نعمة أرسلها له القدر لتحيي محلها؟»

وانفجرت توني تقول:

«اسمعي يا أمي! أحس بأنك فرحة للغاية ولا أحب أن تشعرني بالاحباط ولكنني أقول ان الموضوع لن يسير هكذا. أحببت السيد وارين فهو شخص رقيق للغاية ولكنني لا أريد أن تلتف حول عصا سحرية لأتحول إلى صورة أخرى. لا أريد أن أغرب شيئاً ما في حياتي. انني سعيدة هنا معك. ولقد وفرت لنا بيتاً يحوطه الدفء وسوف يزداد دخل عيالي قريب ويكون لنا بيت صغير مثلكم في النهاية. ولعلك تذكرين كيف كان أبي يقول الأشياء التي يحصل عليها الانسان بالجهد هي الأشياء التي ينبغي أن يحرص على اقتنائها - ولذلك لم يقبل بيتاً بأن يلجأ إلى بنيامين وارين ليطلب منه المساعدة عندما طلبت إليه. بل أراد أن يعتمد على نفسه وألا يستند إلى دعم أحد أفاربه الأثرياء. وهذا هو شعوري أنا تجاه هذا الموضوع.»

وتبع ذلك صمت طويل كانت السيدة وارين تحديق خلاله في توني وهي لا تكاد تصدق. وقد تدلت شفاتها الرقيقتان وقالت:

«ولكن لا يعقل أن نتجاهل تماماً ما حدث.»

ونظرت توني إلى وجه أمها الذي اعتلته الدهشة. وأدركت ان أمها كانت كطفل بيني قصوراً في الهواء وأنها تعاني تماماً كما يعاني الطفل عندما تنهار تلك الآمال. وأومأت في كتابة قاتلة:

«أخشى أن هذا هو الذي سوف يحدث وهذا هو ما كان أبي يتمنى أن يراني ألتزم به. لو كان الأمر قاصراً على التحاقني بعمل في الشركة لقبيلته كما وعدتك ولكن



هذا التفكير الجديد شيء لا يحتمل النقاش فقد حقر الرجل الذي أجرى لي المقابلة من شأني تماماً...»

وانفعلت في شيء من الغضب عندما تذكرت كيف تمت المقابلة والطريقة المتفطرة التي رفض بها طلبها، وأدركت أن وجه الشبه بينها وبين زوجته ربما كان وراء طريقته النقطية التي تصرف بها، ولكن ذلك لم يكن عذراً كافياً لما حدث، وواصلت تقول:

«وهكذا يا ماما إذا كان باستطاعتي أن أكسب معاشي من العمل في الشركة عما كنت أسمع بشأن أن أعمال شيء من التدليل لأن ذلك ما يحدث الآن أرجوك أن تفهمي!»

وأومأت السيدة وارين في بظم وقالت:

«أنتي أشعر غامماً بما تشعرين به يا توني! والواقع أنني لم أعش مع أبيك طوال تلك السنوات بدون أن أتعلم ما يعنيه الاستقلال.»

واستدارت لتكديس الأطباق فوق بعضها وأخذت تزيل بقايا الطعام بيد مهتزة من العصبية، وقالت:

«فقط أرجو أن تعرفي يا حبيبتي أن السيد وارين دعانا لقضاء عيد الميلاد معه في بيته بمقاطعة غلوسترر ولقد قبلت الدعوة، فماذا تقول له؟»

### ٣ - الظلام الدافئ

وخلال الأسابيع الباقية قبل عيد الميلاد ظلت توني تقنع نفسها بأن تقبل دعوة بنيامين لنظير اشراقة السعادة بادية على وجه أمها، واتخذت السيدة وارين خطوات عملية استعداداً للزيارة.

«إنك بحاجة لبعض الملابس الجديدة يا حبيبتي توني، قررت أن تقضي يوم السبت في المدينة لشعري ما تريد بالتقود التي ولربها لقضاء الاجازة في اسكتلندا.»

واعترضت توني بحجة أن لديها ملابس مناسبة، ولم يكن من السهل ان تعود السيدة وارين عن رأيها، وامتصت يوماً في السوق ورجعتا محملتين بصناديق وقلائف، وبينما كانت توني تعد الشاي قامت أمها بشر الملابس الجديدة على السرير وعلى وجهها مشاعر الهجة والرضى.

ودخلت توني لترقب في انبهار، وقالت:

«إنها ملابس فاخرة، ولكن ماذا أفعل بها بعد عيد الميلاد؟ لن أستطيع أن ألبس رداء كهذا لأذهب به الى السيما أو حتى الى المطعم ثم ضحككت وقالت:

«وماذا عن رحلتنا الى اسكتلندا؟»

وابتسمت السيدة وارين ابتسامة غامضة وقالت:

«لا تشغلي بالك! وعيشي يومك فتجن لا تعرف ما يأتي به العام المقبل.»

«اسمعي يا ماما! إذا كنت تتخيلين أنني سأسمع لنفسى...»

ولكن الأم وضعت يدها على شفتيها وهي تقول:



«آه يا حبيبتي دعينا ننقيل الأمور كما يحدث... ذلك أفضل!»

ولم يكن يوسع توني أن تفعل شيئاً بعد ذلك كان هناك مرضى منتشر بين الموظفين في المكتب، تطلب منها أن تعمل في الصباح وفي المساء ساعات إضافية، وكان الطقس مريعاً وانخفضت درجة الحرارة خلال أيام وهطلت الأمطار بدون توقف حتى ليلة عيد الميلاد، وكذبت بذلك جميع التنبؤات الجوية وساءت الحالة النفسية بسبب الظلام والمطر الذي استمر لأيام واكتظت الحافلات والقطارات بطرفان البشر الذي لا ينقطع.

وعملت توني طوال ليلة عيد الميلاد حتى لا تتيقن أوراق تحتاج إلى النسخ، وغادرت المكتب في وقت متأخر تأمل أن تنفاد زحام وقت الذروة، ولكن الزحام كان كما هو وكانت الرحلة أكثر مللاً، ووصلت إلى الشقة في النهاية وهي تأمل أن تقضي هي وأنها أجازة دافئة تقتصر عليها، ولم تكن مرتاحة لفكرة السفر إلى مكان تجهل في بيت غريب، وخطر لها أن تعترض في آخر لحظة بمرض الأنفلونزا وكانت ترتعد من البرد وهي تفتح الباب الخارجي للشقة.

وأطلت السيدة بلات، مالكة البيت، من غرفتها في الدور الأرضي تقول: «خرجت أمك، وتركت لك هذه الورقة».

وقرأت توني الورقة بأصابع مبتلة، ولمرات.

حبيبتي، تغيرت الخطة واضطرت إلى أن أسبقك، كل شيء على ما يرام، وسأشرح لك عندما تلحقين بي. اتخذ بنيامين الترتيبات وسيمر عليك سائقه الخاص ليحضرك حوالي السادسة والنصف، كنيت لك هذا على عجل - أمك.

ملحوظة: لا تنسي أن تطفئي الشعلة الصغيرة لموقد البوتاغاز

كانت السيدة بلات تنتظر في لفة، وقالت:

«سوف تذهين في الفطار إذا»

وبدا أنها كانت تعرف كل شيء عن زيارة توني وأنها لأقاربها الأثرياء في غلوستر.

وانجهت توني إلى الدرج الثالثة:

«آه، لا، لا أعتقد...»

«هل سيمسلون سيارة اليك؟»

«نعم، أشكرك على اعطائي الرسالة يا سيدي بلات، وصعدت الدرج وأغلقت الباب خلفها وأسندت ظهرها إليه».

كانت الشقة رطبة وباردة، وأستعلت موقد الغاز وأرخت الستائر ووضعت وعاء أسفل المظلة التي تنضج بالماء ونفضت سترتها ونشرتها على أحد الكراسي لتجف. كانت الساعة تشير إلى السادسة وخمسة دقائق، وأدركت أن عليها أن تسرع بالاستعداد إذا ما كانت تعتزم الخروج مع ذلك السائق، وفكرت في مخاطر الرحلة الطويلة بالسيارة وحدها مع سائق لا تعرفه، ودخلت إلى غرفة النوم لتغير ثيابها.

وخطر لها - هل عجد ماء ساخناً للحمام، وخلعت ملابس العمل وارتدت رداء خفيفاً وسارت حافية عبر الغرفة إلى الحمام المشترك ووجدت المياه ساخنة أتاحت لها حماماً دافئاً.

وما أن خرجت من الحمام حتى سمعت جرس الباب الخارجي يذق من أسفل، وأطلت من النافذة فترأت سيارة طويلة أنيقة تقف إلى جانب الحاجز الحجري عند حافة الطريق وانحنى على الدرابزين لتسمع صوت السيدة بلات وصوت رجل يحجبها وصاحت تسأل:

«هل هذا لي يا سيدي بلات؟ أرجوك أن تحطيه ينتظروا سأكون جاهزة خلال دقائق».

وسمعت صوت خطوات تصعد الدرج المغطى بالشمع وتنب كل درجتين في خطوة، فاستدارت تعدو إلى غرفتها، وانفج دثارها الرقيق بينما كان غرابي لورنس يدور مع الدرج ليواجهها، وتسمرت خطاها وحملت لمواجهه والحرارة تصطبغ في وجهها وأحكمت الرداء حولاً وأسرعت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها.

وعندما خرجت تليس كان لا يزال يقف في كبريله بمقامته الفارعة عند الموقد يده واثفت إليها وقال:



«هكذا يكون اللقاء يا أنطونيا»

كان قلبها ما زال يدق من صدمة اللقاء المفاجيء.. وقالت:

«ما كان ينبغي للسيدة بلات أن تسمح لك بالصعود، أنها لا تفعل ذلك عادة ولقد ظننت...»

«لا تعتذري بسبب ثيابك، فلقد امضيت عامين كاملين في لندن وهما يكتفيان لتعديل مشاعر الخجل هذه.»

وقالت في اقتضاب:

«لا أعرف ماذا تعني؟»

كان يوماً مرهقاً للغاية حمل معه الكثير من الاحباط وأحست بأنها عاجزة عن أن تدخل في تراشق لفظي مع ذلك الرجل الذي يثير الغيظ وواصلت تقول:

«هل حضرت حقاً لتأخذني بالسيارة الى غلوستر»

«نعم، ولقد حرصت على ذلك بعد وداعك الساحق الأخير.»

«يمكنك أن تتظاهر بأنك مسرور لرؤيتي من جديد.»

ولوى قمعه، وقال:

«أنا لا أظاهر ابداً، ولكنني أخضع لما لا يمكن تجنبه ومن ذلك دعوة بنيامين لك لزيارته.»

وامتد بصره الى الشقة والى السجادة الصغيرة البالية والستائر الرخيصة الزاهية الألوان والى المظلة التي يقطر ملؤها في الوعاء وواصل يقول:

«ليس من التهذيب أن ترفض الدعوة في مثل هذه الظروف.»

واحمر وجهها، وهي تقول:

«أراك تحاول إهانتى؟»

واوترفع حاجبها، وقال:

«أهينك؟ لماذا؟ انني فقط أحاول أن أكون واقعياً تعلمت أن أقدر الحقيقة وأن أقولها وإن كنت لا أقولها كلها فليس هناك انسان يفعل ذلك وعلى الأقل فأنني

أحدث بما في نفسي.»

وبدا الحديث مع ذلك الرجل شيئاً مستحيلاً، وجذبت سترتها من على ظهر الكرسي حيث كانت تجف أمام المدلأة ولكنه أمسك بها وهو يقول:

«اسمحي لي»

وترددت لحظة ثم دفعت بذراعيها فيها، وخيل اليها أن يديه استقرتا فوق ذراعيها أطول مما ينبغي، وسألتها:

«هل حقائك جاهزة لأحملها الى الطابق الأرضي؟»

«نعم أقصد لا... ما زال أمامي بعض الوقت، هل يشايفك أن تنتظر دقائق أخرى؟»

«كما تريد، لقد يعطينا ذلك الفرصة لتفادي زحمة المرور...»

ودخلت غرفة النوم وطوت فستان السهرة، وجعت أدوات الزينة في حقيبة يدها وكان غراي لورنس قد تبعها ووقف يستند الى دعامة الباب يرقبها. وتجهلت عيشه عبر الغرفة الصغيرة يستنارها المزرقة وقرش السرير والسجادة اليدوية على الأرض، وعلق قائلاً:

«دافنة؟ ومن ينام على السرير المقابل؟»

«أمي.»

«أه... كنت قد نسيت! انها في غلوستر الآن.»

واستقر في التأمل كأنها خطرت له فكرة... وطال الصمت وأخذت تبحث في حمية في احد الأذراج، وظل واقفاً عند المدخل ورفع رأسه يحديق في السقف، وقال:

«سوف يحتاج المرور الى بعض الوقت حتى تخف حذته.»

وقطعت الى نوابها، فاستدارت تقول:

«إذا لا داعي للانتظار.»

وعلق قائلاً:

«لست ساذجة رغم كل شيء.»

وقالت في غضب:

«إذن كنت تحاول أن تستكشف أي نوع من الفتيات أنا؟»



وسار عبر الغرفة تجاهها يتشم قائلاً:

«لم أكن أعني بكلامي أن أغويك...»

وأغلقت حافية ملابسها في عصبية بأصابع مرتعشة، وهي تقول:

«ذاك انسان بغيف، هلا اخلاق... لا أريد أن أركب معك الى غلوستر، تفضل

وانصرف! سأجد طريقي بنفسي»

ولكنه لم يتحرك، وقال:

«المكان على بعد أربعة أميال من أقرب محطة للسكك الحديدية. هذا إذا وجدت

مكاناً في القطار، والمنزل جميل ولكنه في مكان منعزل...»

واستمر كأنه يحدث نفسه:

«إنه طريق طويل لحمل به أشجار اللبعم تنضج أغصانها بقطرات المطر فتحول

الطريق الى سلسلة من البرك الصغيرة... وهناك سيارة تاكسي جيدة ولكنها تعجز

في ليلة عيد الميلاد...»

واستدار الى الباب قائلاً:

«سأخير أمك أنك ستلحقين بنا فيما بعد، ولديك العنوان بالطبع...»

لم يكن معها عنوان، وحاولت أن تتذكر اسم المنزل الذي تتجه اليه. وتذكرت

أنه يحمل في مقطع منه لفظة الأبيض الغالون الأبيض الدير الأبيض

ولم تستطع أن تتذكر الاسم بالضبط... بل لم تستطع حتى أن تتذكر اسم

القرية.

وأصتت يركبها ترغحيان فجأة وجلست على حافة الفراش وقد حنت رأسها

لتخفى، النموع التي انسابت من عينيها، وحاولت أن تقاوم واستطاعت للحظة

أن ترفع رأسها بنيا وقف غراي لورنس ينظر اليها بامعان وقال:

«يبدو عليك الانتهاء... متى أكلت لأخر مرة؟»

«لا أستطيع أن أتذكر»

ثم أضافت:

«انتي بخير...»

وحاولت أن تنهض ولكن خانتها رجلاها، وقال في حزم:

«أنت لست بخير لا أريد أن يغض عليك أثناء الرحلة»

«لا بد أن تأكلي شيئاً»

«لن أذهب مع...»

«سوف نذهبين! ارتاحي هنا حتى أجد شيئاً تأكليته من خزانة الطعام»

ولم يضع وقتاً فرغها من حافة السرير ووضعها في وسطه وغطى ساقيها

بلحاف، وتوقف عند الباب ينظر حوله ويقول:

«لا تفلقني! اني لا أستغل فرصة ضعف امرأة»

وخرج الى المطبخ الصغير بينما اضطجعت هي وأغلقت عينيها، وتذكرت أنه

قال انه يلتزم بالصق ووثقت به رغم أنها كانت تكرهه، وكان الانتهاء قد بلغ

منها مبلغاً جعلها تعجز عن تحليل مشاعرها»

ودعشت إذ وجدته يعود في لحظات قليلة ومعه فنجانان من القهوة الساخنة

وكومة من شطائر الجبن، وقال:

«لا أستحق ثناء، فقد كان شيء معداً من قبل»

جلست تقضم إحدى شطائر الجبن وقد أضيفت اليها صلصة ذات نكهة مميزة

أعدتها السيدة «ارين»

وأكلت ثلاثة من الشطائر وشربت فنجان القهوة، وأرخت رأسها الى الخلف،

وتنهدت تقول:

«انتي أحسن حالاً الآن! كنت جائعة حقاً، ألا تأخذ شطيرة؟»

ومدّت طبق الشطائر تجاهه...

وهز رأسه قائلاً:

«لا، شكراً، أكلت على الطائرة»

«الطائرة؟»

«نعم حضرت للتو من رحلة الى باريس بعد أسبوعين أنجزت فيها بعض مسائل

العمل لفرعنا هناك»



وأزاحت توني اللحاف، ونهضت عن السرير، وكانت لا تزال تلبس بذلتها المصبوغة من التويد، ونظرت الى حالة ملابسها، وحاولت أن تسويها في قلق وتقدم غراي خطوتين غير الغرفة، وقال في حزم:

«لا تفعل ذلك! انك تدين وثيقة الشبه بـ ميج... كانت تفعل هي ايضاً ذلك... هل تخرج الآن؟»

وجعل حقايتها وهو يقول:

«هل من شيء تعمله قبل أن نخرج؟»

وأجابته:

«أنتي جاهزة.»

ولاح لها أنه كان يبدي تلك الكراهية تجاهها لأنها كانت تذكره بميج وبكل شيء فقد... ودخلت غرفة الجلوس، وأطفأت نار الموقد والمصباح ونظرت لتطمئن الى أن كل شيء في موضعه وتبعته تهبط الدرج.

كانت السيارة طويلة وفاخرة، وفتح لها الباب ووضع حقايتها في الخلف ثم جلس الى عجلة القيادة، وحاولت توني أن تثبت حزام الأمان حول وسطها فأخفقت، وقال لها:

«أتركيني أثبتته حولك.»

ومال تجاهها ليثبت الحزام وأحست بالطلع وأسرع تبسطها، ولكن لم تتلصق يداها هذه المرة، وقال:

«مضبوطاً حسناً! سوف نرجع الى المدينة اذ علي زيارة المصنع أولاً وبعدها نأخذ الطريق العنومي.»

لم تكن توني قد ركبت من قبل سيارة شبيهة بتلك السيارة التي أخذت تنساب في شوارع ضواحي لندن، وفكرت أنها كان يمكن أن تستمتع بتلك الرحلة لو كان الوقت مختلفاً وفي صحبة أخرى.

ورفعت بصرها تجاهه، كان يبدو متفطرساً ساخراً يبعث الرهبة فيمن ينظر اليه، له جاذبية رجل قوي، وفحيتك كم من النساء الشريرات جذبتهن تلك

المنطاطيسية. ولم تكن تحسدهن على ذلك فقد كان حلمها بالحلب شيئاً يختلف تماماً... كانت تعلم بفلاح أو مزارع فواكه له شعر أشقر وعينان زرقاوان ولم يتسم ذاتياً... شخص مثل أدريان الذي رحل الى أستراليا مع أسرته... كان الشاب الوحيد في حياتها لسنوات طويلة وعندما رحل أحست بشيء من انكسار القلب وإن كانت القلوب لا تنكسر في سن السابعة عشرة... ولم يكن هناك منذ ذلك الوقت شخص لمس قلبها. كان أدريان يرعى الغنم وكتب لها مرة أو اثنتين وأرسل لها صورة فوتوغرافية له وهو يسك بحصان أسود رشيق، كان يبدو في الصورة شاباً كادحاً وكانت تحمل باليوم الذي يبعث لها فيه كي تلحق به وتزوجه ولكن أباه مرض وأمه تكدر طوال النهار في أحواض الخضر بالحديقة والى منتصف الليل على ماكينة الخياطة والتطريز لتكسب خبزهم. وحتى لو أرسل إليها أدريان فما كانت تستطيع الذهاب.

وانقطعت الرسائل بعد فترة، وتسلمت أمها في السنة الماضية رسالة من والدته أدريان تخبرها فيها بزواجه، وحزنت توني وأحست بالضيق نيت الموضوع ولكن صورة أدريان بقيت بشكل غريب أمير الأحلام... وألقى غراي لورنس عليها نظرة سريعة قائلاً:

«أنت بخير! لن يغنى عليك من جديد.»

واستجمعت قواها، وقالت:

«بخير تام، أشكرك.»

وبدأت السيارة تنشق طريقها في الشوارع الضيقة خلف طريق الكنيسة البيضاء ثم توقفت أمام باب خشبي قديم لا يحمل أية علامة مميزة، وقال غراي:

«ينبغي أن تأتي معي... لا أستطيع أن أتركك وحيداً.»

وقالت في سذاجة:

«لماذا؟»

وأجاب:

«يمكن أن تحدث أحداث غريبة للسيارة في مثل هذا المكان.»



«ولكن إذا كان هناك شخص ما بالسيارة فإن شيئاً لن يحدث...»

ونظر إليها نظرة عابسة، وقال:

«إذا كان من ينتظر بالسيارة مثلك فمن المؤكد أن يقع ما أخشاه... هيا»

وهزت كتفيها، وأطاعت، وأحكم إغلاق السيارة وسار أمامها وصعد درجاً قديماً إلى غرفة كبيرة بالية وتبعته توني وهي تنظر حوطاً في اهتمام... إذاً هذا هو المصنع الخاص بشركة وارينز المكان الذي صنعت فيه الديسكيس اللامعة والخواتم التي رأيتها في بوند ستريت. وفي ضوء المصباح الوحيد رأيت الأرض الخشبية العارية وصفاً من المناضد على ثلاثة جوانب من الغرفة كل منها ينزل عن الآخر بواسطة حواجز، أما على الجانب الرابع من الحجرة فكان هناك معدات أثقل، ضخمة، وغامضة تقع في الظلال، ولحمت الضوء جلس الشخص الوحيد الذي يشغل الغرفة ونهض فور دخولها. كان متوسط العمر يميل إلى السمنة له شعر خفيف يلبس مريضة بيضاء سمكة.

وعبر غراي الغرفة تجاهه قائلاً:

«أهلاً يا جو... أمل ألا أكون حرمته من المشاركة في تزيين شجرة عيد الميلاد لأطفالك»

«أهلاً سيد غراي... إنتي أترك هذا للهولزوجتي، وكان لا بد أن أنتهي كل شيء».

تحصل بي السيد بنيامين وأخبرني أنك أنت لتأخذ معك بعض الانتاج».

وفتح درجاً وناول غراي طرداً صغيراً وضعه بعناية في جيبه الداخلي وسأل جو قائلاً:

«لم يقل السيد بنيامين شيئاً عن سبب رغبته في هذه القطعة الثمينة في البيت»

لم يذكر يا سيد غراي».

ونظر جو عبر كتفي غراي إلى حيث كانت توني تقف وقال:

«استبحك عذراً يا أنسة فالواقع أنني لم أرك»

ونظر غراي حوله وقال:

«نسيت أن أقدمكما... أنطونيا! هذا هو جولايتر الذي يعرف كل شيء عن أسرار صناعة المجوهرات والذي له الفضل في أن تقف شركة وارينز على قدميها. وهذه هي الآنسة وارين يا جو حبيبة أخ السيد بنيامين وهي تقضي عيد الميلاد معنا»

ومدت توني يدها لتصافح جو الذي كان يبدو حزيناً من الطراز الأول.

وأخذ جولايتر يدها وهو لا يصدق عينيته والتفت إلى غراي قائلاً:

«لا أكاد أصدق يا سيد غراي إنها تبدو كما لو كانت...»

«كما لو كانت زوجتي عادت إلى الحياة! نعم يا جو أعرف ذلك»

وارتبك جو قائلاً:

«أسف يا سيد غراي... لم يكن لياقة مني أن أقول ذلك، ولكنني أخذت بالمفاجأة... أسف»

«لا تشغل بالك يا جو شعرنا جميعاً بالاحساس نفسه ولكننا بدأنا نعتاد عليه»

أليس كذلك يا أنطونيا»

كانت نظرتة إليها خبيثة إلى حد ما ولم تحب والتجهت إلى منضدة العمل أسفل

المصباح الوحيد حيث جلس جو، تدفق النظر في الطاولات الصغيرة وفي

الأدوات التي تتدلى من الرفوف المثبتة على الحواجز... مطارق ومبارد ومناشر

ومطارق خشبية وأشياء أخرى... كان كل شيء بهيج صغير وقالت:

«أنه شيء يبهز البصر! وهل كل الانشياء الجميلة التي رأيتها في بوند ستريت

صنعت هنا»

وأجاب جو:

«كلها صنعت هنا يا أنسة... صنعناها بأنفسنا... ما عدا الساعات فهي تأتي من

سويسرا... هل تريدان القاء نظرة على هذه يا أنسة وارين! لقد وصلت اليوم

فقط»

ولكن غراي تقدم إلى دائرة الضوء حول المنضدة، وقال:

«أسف يا جو لنزول ذلك إلى زيارة ثانية فأمامنا رحلة طويلة»



وأصرح جو يقول:

«طبعاً يا سيد غراي، لم أنتبه لذلك وربما أخطرت الأنسة وارين مرة أخرى، هذا إذا كنت تحين أن تري ما نصنعه هنا يا أنسة»  
«الواقع أنني أحب ذلك بالفعل»

وغادرا لندن سالكين الطريق العمومي للسيارات، وقد ركز غراي اهتمامه على القيادة، وكان المرور في ليلة عيد الميلاد مزدجماً والمطر ينهمر وجلس توني على مقعدها في السيارة في استرخاء كامل، ربما كانت تود أن تسأل عن طول الرحلة وعن الزمن الذي قد تستغرقه ولكن الرجل لم يكن يظهر أى رغبة في الكلام، وركزت بصرها على الطريق وكانت أضواء السيارات المقبلة من الاتجاه المضاد تحطف البصر لحظة ثم تختفي، واستسلمت للنوم، وعندما فتحت عينها وجدت أنها كانا قد تركا طريق السيارات، وأخذوا يقودان في بطن أكثر على طول طريق ضيق حيط ويرتفع وينور ويتلوى. وجلست لتجيب النظر...

وجاء صوت غراي عبر الظلام الذي يغلفها يقول:

«هل نمت جيداً؟»

وقالت في تشاقل:

«نعم، أشكرك»

وسألها قائلاً:

«ما الذي كنت تفعلينه في الأيام الأخيرة مما أضعف صحتك الى هذا الحد؟ هل كنت تأرقين طوال الليل؟  
وأجابته في حمرة:

«تلميحاتك غير موفقة يا سيد لورنس إذا كنت حقاً تريد أن تعرف كنت مرهقة طوال الأسبوعين الماضيين بعد أن تغيب نصف الموظفين بسبب الأنفلوانزا...»  
ووقفت السيارة فجأة بصوت يدل على أنها غاصت في الماء واصطدمت توني بهزام الأمان من أثر الوقوف المفاجيء. وسمعت غراي يهدم قائلاً:

«يا لللعنة! كان ينبغي أن أعمل حساباً لهذا...»

وانتصبت في جلستها وأخذت لتحقق الى الأسام، كان الجو شديد القناسة وأدركت أن الأصواء الأمامية للسيارة أطفئت ونظرت خلال النوافذ الجانبية، ورات السيارة محاطة بالماء من كل جانب والى جانبيها كان غراي يتحرك في عصبية قائلاً:

«هذا الشارع اللعين، سبق أن اغرقته المياه من قبل، كيف لم أنتبه لذلك؟»  
وقررت أن تثار لنفسها فقالت:

«كنت مشغولاً بمضايقتي ولم تنتبه للقيادة»

وسمعت يثنق نفساً عميقاً ويقول في مرارة:

«يا إلهي ان طريقتك في الحديث تشبه طريقتها تماماً... أخشى أن أنسى في يوم من الأيام أنني لست زوجك»

وأحسّت بأنه من الخطورة أن تدخل في مبارزة لفظية مع رجل مثل غراي لورنس، وحاولت أن تتبعد عنه في الظلام بأقصى ما تستطيع وأحسّت بهزام الأمان يضغط عليها، وقال لها في صوت جاف:

«لا تنقلني فالمكان والزمان ليسا ملائمين»

واسترخت بعض الشيء وسمعت يهقه في الظلام قائلاً:

«أنا لا تثقين بي! هل تثقين بي فعلاً؟»

وأجابت على عجل:

«وهل أنت جدير بالثقة؟»

وقال في اقتضاب:

«من المحتمل أنني لست كذلك»

وأدركت أنه يتحسس جيبيه وقال لها:

«سبكارة؟»

«لا شكراً، لا أدخن»

وأحاطت بها سحابة من الدخان حاول أن يزيحها بيده قائلاً: «آسف، انها عادة



سيئة، ولكنني أحتاج إليها في بعض الأحيان».

وصار يدخل دقيقة أو دقيقتين، ثم قال في حدة:

«والآن إلى العمل. لنستطلع ما قد يصير إليه حالنا؟ إنظري في درج القفزات  
أعتقد هناك مصباح بطارية هناك».

ووجدته وناولته إياه، وأخذت تنتظر بينما أخذ ينظر إلى التأهلو وأدار المفاتيح  
الضوئية دوماً استجابة.

وقتح الباب المجاور له وأطل إلى الخارج. كان هناك صوت متدفق أسفل  
السيارة وأغلق الباب بعنف وقال:

«الأمم ضعيف تسرب الماء إلى المحرك وأعتقد أن الدائرة الكهربائية تعطلت تماماً.  
«وأي ن نحن الآن؟ ما طول المسافة بيننا وبين منزل العم بنيامين؟»

«حوالي ميلين، ونحن الآن في شارع يمتد صعوداً إلى الطرق البيضاء وإلى عدد من  
الأكواخ الخشبية ومن غير المحتمل أن نرى سيارة بهذا الطريق في ليلة مثل  
هذه لأن الناس على الأغلب يعرفون أن النهر يفيض ويهفون في بيوتهم».

«لكن - ألا يخطر للعم بنيامين أن سيارتنا قد تخرج؟»

«من المحتمل أن يخطر له ذلك آخر الأمر... وسوف تصل جماعة الانتفاضة طال بنا  
الوقت أم قصر ولكن قد يتأخر ذلك. قطعنا المسافة من لندن إلى هنا في وقت  
قصير ولا أعتقد أنه خطر لهم أن يفكروا فينا بعد، وإذا لم نستطع أن نخرج  
أنفسنا بأنفسنا سيكون علينا أن نجلس ونرتعش في ليلة عيد الميلاد».

«أليس بإمكاننا أن نخرج ونسير ما بقي من الطريق؟»

«نسير؟ وهل أنت مستعدة لسير مسافة ميلين في ليلة مثل هذه؟ أعتقد أن أفضل  
شيء هو أن أتركك هنا وأسير أنا إلى المنزل ثم أحضر معي سيارة من هناك لأخذك  
وسأعود في أقل من ساعة».

وقالت:

«اتفقنا...»

«لا يعقل أن أجعلك تتكبدين السير وتعرضين للبلل وللإصابة بالالتهاب

الرئوي. وما دمت لا ترغبين في البقاء وحدك فسوف نبقى معاً وكأطفال للقلبة  
سوف نوفر لأنفسنا الراحة بأقصى ما يمكن».

وانحنى إلى الخلف، وجذب سجدة سميككة ناعمة عن المقعد الخلفي غطى بها  
ساقه. تونى وسالفيه وحل حزام الأمان واقترب منها وأحكم السجدة حولها ثم  
مد ذراعه وأطفأ مصباح البطارية واحتواها الظلام من جديد.  
وأجست بصوته يأتي من مكان ما فوق رأسها يسألها:  
«هل تشعرين بالراحة؟»

وأخذ قلبها يخفق وجف فمها ولم تستطع أن تخرج جواباً وأومأت برأسها في  
الظلام علامة الموافقة، وقال في لهجة حازمة:

«حسنًا... والآن يمكنك أن تنامي من جديد فقد نضطر إلى الانتظار بعض الوقت  
قبل أن يرسلوا من يبحث عنا، ولا أحب أن أسترسل في أحاديث تافهة».

كيف تنام وجسمها يتصلب في شعور لم تعهده من قبل؟ مجرد تواجدها مع  
شخص غريب في تجاور مكاني وفي تلك الظروف ربما لا يسبب له أي ارتباك  
ولكنه يؤثر فيها بطريقة لا تطاق. وجلست متصلة تضغط نفسها بأقصى ما  
تستطيع على المساحة المخصصة لها من الكرسي وأغاسها تلهث في غير انتظام. ثم  
تكن تعرف كم من الوقت تستطيع أن تجلس هكذا، ولكنه بعد دقائق قليلة تحرك  
- قابلاً:

«ماذا جرى لك يا فتاتي؟ اهذي. ألا تستطيعين ذلك؟ أنا لست إنساناً فاسقاً، أنا  
مشكك تماماً غير راض عن الوضع الذي نحن فيه ولكننا سنظل حبيسين حتى  
يلوح شخص يتقننا. علينا أن نتقبل وضعنا وأؤكد لك أنني أسيطر تماماً على  
نزعاتي النظرية في الوقت الحاضر».

وأنكشت في مقعدها، وحاولت أن تريح رأسها في جهته ثم حولته إلى جهة  
أخرى، ووجدت أن رأسها يميل إلى الاسترخاء في تناقل قلق. أصدته إلى المزيد  
النائمة. ولكن ذلك كان أسوأ حالاً إذ كان رايداً وصلباً، ولم يبد غراي حراكاً  
خلال ذلك، وأجست باشعاع دفئه ومست يدها قباض سترته الناعم وكان كتفه



محاذياً لوجنتها، وخطر لها حسناً، ولم لا؟ وتركت رأسها يميل لجناحه، وقال في صوت يعبر عن الأمر الواقع:

«هكذا أكثر تعقلاً والآن استغفرني في نومك من جديد. انك فتاة مطيعة».

وأحسّت بالدفع وبالتعاس وأغلقت عينيها، واستغرقت في حالة بين اليقظة والنوم، في منتهى السعادة بدرجة لم تألفها.

ولم تدر كم من الوقت مر عليها - خمس دقائق أم خمس ساعات - بعد ذلك عندما أيقظها صوت غراي وهو يقول:

«ها نحن أخيراً، وصل فريق الانتفاذ».

وفتحت توني عينيها ورفعت رأسها لتجد أضواء مبهرة تنجس مباشرة إلى السيارة التي يقبعان فيها وكان غراي لا يزال يحيطها بدراعه يمسك بها في قوة، وانحنى ليفتح النافذة المجلورة لها وهو يقول:

«من أنتم؟»

وجاء صوت من السيارة الأخرى التي وقفت على حافة مياه الفيضان يرد قائلاً:

«هذا أنا يا غراي! أنا دومينيك، هل بإمكانك أن تخرج لتخوض في الماء أم نجر سيارتك؟»

«انتظروا سأكون عندك...»

وانتصب غراي في مقعده وقتم في لهجة ساخرة يوجه الكلام إلى توني:

«انك في أمان تام الآن يا عزيزتي!»

## ٤ - الهدية

وقالت السيدة وارين وهي ترفع صينية العشاء لتضعها على خزانة الملابس:

«أحسست بالقلق قداماً عليك يا حبيبتي برغم أن بنيامين أكد لي أنك كنت في أمان تام مع السيد لورنس، واقترح هذا الشاب الصغير دومينيك أن يخرج ليستطلع أخباركم - هل أحضر لك مزيداً من الطعام؟»

كانتا يجلسان في غرفة النوم المخصصة لتوني بعد أن صمم العم بنيامين على أن تأوي إلى الفراش وكان قد رحب بها قائلاً:

«يبدو عليك أثر الإرهاق يا أنطونيا... اخذي إلى الراحة لتتمكني من المشاركة في الاحتفالات غداً».

وشكرته توني وكان آخر ما يخطر لها أن تجد نفسها في صحبة غراي لورنس بعد ذلك، فلقد لقيت منه ما يكفي... منذ أن صعد الدرج وكاد يصطدم بها وهي تلبس رداء الحمام الرقيق منذ أربع ساعات فقط بدت كأربعة أيام حافلة بالأحداث... ولكن كان عليها أن تنسى ذلك.

والنفتت إلى أمها التي كانت تعلق ملايسها في الحزانة المبنية في الحائط تقول:

«ضعيني في الصورة يا أمي... هل هناك آخرون يعيشون هنا؟ ومن هو دومينيك هذا الذي خرج يبحث عنك؟»

كان غراي قد فتح باب السيارة وخاض إلى ركبتيه في الماء ثم أنحنى وحملها بعيداً عن الابل ثم ركبا سيارة لاندروفر نقلتها إلى البيت، ولم يكن



هناك مجال عندئذ للتعارف وبعدما عاد الرجلان الى السيارة المحاصرة.

وقالت أمها:

«لا يوجد سوانا يا عزيزتي... لكننا نكون ستة أشخاص على العشاء غداً. بنيامين وأنت وأنا والسيد لورنس و دومينيك فنتش وأخته آن. ودومينيك هو مدير المزرعة ويسكن مع أخته في الأكواخ القريبة، لم أقابل أخته بعد وهي تعمل معلمة في المدرسة القريبة، انه شخص جذاب يذكركني بشخص عرفته يوماً ما لا أذكر اسمه الآن».

وابتسمت توني اذ لم تضع أمها وقتاً في التعرف الى الموجودين وقتت لو كانت لها القدرة نفسها على كسب الصداقات، سألت في طجة رقيقة:

«ولكن لماذا تعجلت الحضور وتركيتني هكذا؟»

«انني أسفة لحدث كل شيء عفواً... سافر بنيامين هذا الصباح الى برمنغهام وترك لسكربتته السيدة جيتز تدبير الأمر واتصلت بي جيتز هذا الصباح لتخبرني أن مدبرة المنزل نقلت الى المستشفى لاجراء عملية عاجلة، واستأذنتني في الحضور مبكرة بعض الشيء لأعني بشؤون المنزل لأن الخادمتين الصغيرتين جديدتان لم تتربيا على العمل وطماننتي السكرتيرة الى أن السائق سيحضرك في تمام السادسة والنصف ويبدو أنني لم أسمع جيداً لأن السائق كان مع بنيامين... أسفة يا عزيزتي فقد سببت لك بعض الغناء».

«لا داعي للأسف... فقط كنت مشغولة، وانتظرت السائق ولكن جاءني ذلك السيد لورنس».

ونظرت اليها أمها نظرة حادة، وسألتها:

«ما الخبر يا عزيزتي؟ ألا تحبين السيد لورنس؟»

«لا لا أحبه... انه أبغض رجل رأيته».

وانحنت السيدة وارين، وأخذت تزهت على ابتهاجها في استرخاء:

«لا تتسرعي في الحكم يا عزيزتي! حدثني بنيامين عن السيد لورنس... كان زوج حبيبته... التي قتلت في ذلك الحادث و...»

«أعرف! شبيهتي على ما يبدو ان كل من يعرفها لا يصدق عيشه عندما يراني،

أحس لو كنت شبحاً...»

وبدت الدهشة على السيدة وارين، وقالت:

«لم أكن أعرف ذلك، ولعله يفسر، من الواضح أن لورنس كان يحب زوجته بدرجة كبيرة، ولقد تغير بعد وفاتها، كان فيما قبل شخصاً إيجابياً، كما يقول بنيامين، ولكنه الآن صار شخصاً معقداً وساخراً بل وعصياً، هذا يقلق بنيامين كثيراً وخاصة انه يعتمد عليه في العمل بعد أن أحس بالكبر ويريد أن تقضي الأمور في يده».

نهضت وقالت:

«والآن، نامي واسترخي ليكون يومنا غداً يوماً بهيجاً».

وتنهدت جذلة، وقالت:

«تخيلي أننا نقضي عيد الميلاد في منزل جميل كهذا... أحب أن تتجولي في أرجائه».

وانحنت وقبّلها قائلة:

«أسعدت مساء يا حبيبتي، أحس أن فصلاً جديداً يبدأ في حياتنا».

وابتسمت أمها وانصرفت.

وجلس توني في الفراش واستندت الى غطاء الوسادة المطرز، وأخذ بصورها يتجول في الغرفة بأمعان، غرفة صغيرة مزينة أنثياً بسيطاً، ولكن كل شيء كان يثنى بالثراء، جدران خضراء تتناغم مع ستائر مزخرفة وفوش سرير يزدان بنقوش زهور البنفسج والسوسن والخشب الذي صنع منه المكتب وخزانة الملابس والأبواب المزخرفة والسقف المرتفع والسجاد الفخم على الأرضية. ووقع بصورها على وعاء البسكوت المصنوع من الخزف النفيس على النضد الجانبي وعلى الثرموس بجانيه وعلى كومة المجلات الصقيلة والمزهية البيضاء الصغيرة المزينة بنقوشات صغيرة...

لم يكن قد مضى على وجود أمها في المكان الا ساعات قليلة ومع ذلك حدث تغير كبير في سلوكها وبدت عليها مظاهر الثقة بالنفس في شيء من الابتهاج، وكانت تنصرف كأنها المضيفة وأنها اعتادت هذا النمط من الحياة المترفة طوال حياتها، وخشيت توني ألا ترضى أمها بعد ذلك بحياتها في مسكنها المتواضع



يحي هورنس. وتنهدت وحاولت أن تنسى. كانت منهكة تماماً. وأطفأت المصباح. وسكنت إلى القرائن الوثيرة. واستغرقت في النوم خلال لحظات. واستيقظت لثرى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تقبل إلى الطول قليلة الحبرة. تلبس مريئة زرقاء من النايلون. كانت ترفع الستائر. وتسلمت شمس الشتاء الباهتة إلى الغرفة من خلال أغصان شجرة جرداء خارج النافذة. ونظرت بعينين طارفتين ودفعت شعرها الذهبي إلى مؤخرة عنقها وجلست وقالت: «أهلاً من أنت؟»

واستدارت الفتاة في ابتسامة عريضة. وقالت:

«أنا شيرلي. أحضرت لك الفطور وتعتذر السيدة وارين عن عدم مجيئها الآن فهي تحشو الديك الرومي وتنتظر عندما تكملين استعدادك ولكن لا تتعجلي!»

وانجهت شيرلي إلى الباب بعد أن أبلغت الرسالة. ثم توقفت لتقول:

«أتمنى أن يكون لشعري لون شعرك. إنك تشبهين الصورة الفوتوغرافية التي في غرفة الجلوس. وكنت أظن أن المصور أعطى الشعر ذلك اللون ولكني أراه الآن بعيني لوناً طبيعياً.»

وخرجت وأغلقت الباب خلفها.

كانت صينية الإفطار على الطاولة المجاورة للممرير ورفعتها توني على ركبتيها. وأحضت بشيء من الارتياح عندما رأت ألوان الطعام. كمية كبيرة من التوست، وشرائح من الزبدة الطبيعية، بيضة كبيرة مقلية وطبق من المربى لبتت عليه بطاقة كتب عليها:

عيد ميلاد سعيد يا حبيبتي. أخلص التمنيات طوال العمر كانت البطاقة بخط أمها. وابتسمت توني. وسكبت لنفسها بعض القهوة... لتستمتع بأيام قليلة من السعادة ما دامت قد وافقت على الحضور. ولكنها ينبغي أن تتجنب غراي لورنس قدر ما تستطيع لتوفر لكليهما الهدوء. عندما توصلت إلى هذا القرار الحكيم اطعمت. وبدأت تتناول طعام الفطور في رضى كامل.

وبعد أن أفرغت آخر نقطة من القهوة نهضت لتتظر من النافذة. لم تكن قد

تعرفت على المنزل في الليلة الماضية وكان انطباعها أنه منزل ذاتي. مريح تنهج في ردهته نار المدفأة حيث كان بنيامين يجلس في الليلة السابقة على كرسي مزين بقماش قطني مطبوع. وأخذت تنظر الآن إلى المرج الأخضر الممتد. وأحواض الزهور الجرداء التي تنتظر لفضل الربيع وتبينت أن مبنى الطريق البيضاء كان أحد المنازل القديمة في غلوشتير. قرأت عنه في يوم من الأيام في المجلات. يرجع تاريخه إلى أيام كانت تجارة الصوف تتركز في تلك المنطقة حيث تربي أغنام كوتزولد بكثرة على المزارع الممتدة. وبدأت بعض الأغنام تنتشر على التلال الممتدة وراء الحديقة وظنت أن تلك كانت المزرعة التي تحدثت عنها أمها في الليلة السابقة والتي يديرها الشاب الذي أسرع لتجديتهم دومينيك وسوف تتناول العشاء معه وأخته في ذلك المساء. وخطر لها أنه شيء جميل أن يتواجد أناس كثيرون لتتخذ منهم عازلاً بينها وبين لورنس. وانصرف بصرها عن المنظر الممتد خارج النافذة للحظة. ورأت من جديد شبح غراي لورنس بقممته الفارغة وبشخصيته الساخرة المشككة تنظران في عينيها في تحد وكبرياء... وأحضت برعشة بسيطة. وانجهت إلى الحمام الملحق بغرفتها.

وانجهت إلى الطابق الأرضي بعد ذلك بنصف ساعة ترتدي فستانها الجديد بلون الغرفة الغامق والذي يتسجم تماماً مع لون شعرها. وعندما وصلت إلى الدرج السفلي للسلم العريض المصنوع من خشب البلوط توقفت لتتفحص الردهة السفلية. وأدركت أن المنزل كان يشبه إحدى الصور التي تعرضها المجلات المصفولة. لم تكن الردهة ضخمة ولكن بدا كل شيء كأنه أكمل ما يكون من نوعه. وأحضت بأنها بحاجة إلى أن تعرف شيئاً عن تاريخ صناعة الأثاث. وسمعت صوتاً يقول:

«أهلاً. لا بد أنك أنطونيا»

واستدارت لثرى شاباً يقف عند المدخل خلفها يبتسم. كان أشقر البشرة يلبس بتلون ركوب الخيل وسويت من الصوف. وواصل يقول:

«إنك تبدين كأنك لوحة زيتية. إعطيتي الدرج واتيحي لي الفرصة لأقدم نفسي. لقد تقابلنا في الليلة الماضية ولكن في غمرة الفيضان وكنت في حالة سيئة.»



وهبطت ما بقي من الدرج ومدت يدها تصافحه، وقال:

«أنا دومينيك فتش، فلاح وجنّلمان...»

وأمسك يدها بكلتا يديه ونظر في حدة الى وجهها وهز رأسه في عجب:

«أخبروني أنك صورة طبق الأصل عن المسكينة ميدج... ولكن يا لله! هذا

شيء سخيف... لا تشغلك تلك الفكرة فأنك شيء آخر»

وردت له الابتسامة، وعرفت من هو الشخص الذي كانت أمها تعتقد أنه

شبيههم... كان من نفس طراز أدريان الذي رحل الى أستراليا. وأحسّت نحوه

بعاطفة، وقالت:

«أشكرك على هذه الكلمات اللطيفة. انني أشعر بالضيق عندما يحدث في كل

شخص كما لو كان رأى شيئاً...»

وواصل يقول:

«أنت لست شيئاً»

وأطلق يدها على كره منه، وقال:

«هل احتملت مغامرة الليلة السابقة؟ قال غراي انكها بقيتما هناك حوالي ساعة

أو أكثر قبل أن أحضر لتجديتكما»

وأحسّت بحرارة تسري في وجنتيها عندما تذكرت ما حدث على مرأى منه،

وقالت:

«حناً! لا أستطيع أن أقدر الوقت فلقد فضلت أن أنام حتى تصل التجددة»

وعلق قائلاً:

«كان ذلك خيراً... فلقد خذلت غراي... وهو يستحق ذلك... انه يعتقد أن إغراء

للنساء لا يقاوم»

وسأله:

«وماذا حدث للسيارة؟»

«ما زالت هناك في حدود معلوماتي، كان من العبث أن نحاول سحبها في الظلام

ولذلك اكتفينا باخطار الشرطة بمكانها، وقد وضعت عدداً من القوانيس الحمراء

على الطريق، يا لسؤ حظ غراي فالسيارة جديدة لم يحض على شرائها أشهر قليلة

ولا يد أنه قد تأثر كثيراً.

وايتم للمرة الثانية ابتسامة عريضة، وأحسّت بشيء من الحقد في صوته وهو

يواصل:

«ومع ذلك فهو الذي خاض بها في الماء... انه لا يلوم الا نفسه»

وحول الحديث قائلاً:

«أذن حضرت لتضحية عيد الميلاد في هذا المستنقع؟ لم يكن على لسان بنيامين

سواك خلال الأسبوعين الماضيين، انه يحب العائلة بطبعه لكنك ظل يعيش

وحيداً حتى ظهرت حادثة ميدج حطمت قلبه لفترة طويلة.»

«هل كنت تعرفها؟»

«بالطبع، كل منا كان يعرفها، كانت سيدة بالفعل»

وأرادت توني أن تعرف المزيد عن ابنة العم فقالت:

«كانت حادثة سيارة، وكانت تفرد بنفسها»

وأوماً دومينيك:

«نعم»

وسمع صوت حاد يتادي اسمه من أعلى الدرج، فنظرا الى أعلى ورأيا غراي

بوجهه الغاتم هناك، وأحسّت توني بشيء من الارتباك، ولكن دومينيك

ايتم قائلاً:

«أهلاً... أيتها الشمس المشرقة، عيد ميلاد سعيد»

وهبط غراي الدرج لحياتها، ووقف ينظر إليهما في برود ثم ركز بصره على

دومينيك يقول:

«أين كنت؟ بنيامين ينتظر أن تقدم اليه التقرير»

وارتفع حاجبا دومينيك في حركة مضحكة، وقال:

«يا عزيزي! يا عزيزي! هل أنا حيوان مربوط الأفضل أن أصعد لألوة بالأمان،

سأراك فيما بعد يا حبيبي»

ولم يكتف توني في خفة، وصعد الدرج مسرعاً، ووقف غراي هناك

بنظر الى توني في صمت، ولما لم تستطع احتمال الموقف لفترة أطول، قالت:



«عيد ميلاد سعيد يا سيد لورنس».

ودعشت إذ رأيته يبتسم ابتسامة حقيقية دونما سخرية وخمنت أنها لا بد أن تكون بركة عيد الميلاد، وقال:

«وعيد ميلاد سعيد لك يا أنطونيا، هل تمسحت بعد محنة الأمس؟»

«نعم... أشكرك... لم تكن محنة حقيقية فلقد تم انقلاظنا في وقت قصير».

«قصير جداً بالنسبة إليك؛ هل كنت تودين أن يطول ذلك الموقف الشعري؟ قد نكرر المشهد يوماً ما بشرط ألا تفرق سيارتي أثناء ذلك».

ولجأهلت طريقته الساخرة، وقالت:

«أسفة لما حدث للسيارة، وأمل ألا يكون التلف كبيراً».

وهز كتفيه، قائلاً:

«أعتقد أنها ستبقى صالحة للعمل».

وحاول أن يغير مجرى الحديث، قائلاً:

«أخشى أن أكون قد قطعت حديثاً ودياً بينك وبين الصديق دومينيك. لقد تصادفتما سريعاً».

واحمرت وجنتاها خشية أن يكون قد سمع ما دار بينهما من حديث أو على الأقل الجزء الأخير منه، وقال:

«نعم سمعت بالفعل ما تتحدثان عنه ولا أومك بالطبع ولكنني أكون محتأ إذا سألتني أي سؤال تودين عن المرحومة زوجتي».

وأحسنت بأنه صلتها على وجهها ولم يعطها الفرصة لتجيب، وقال في أدب:

«هل قام أحد بتعريفك بالمنزل؟»

وأجاب:

«لا؛ ليس بعد. نزلت منذ وقت قصير بعد أن تناولت فطوراً في القرائ، لم أتعرد مثل هذا الترف».

«سوف تتعودين على كل شيء في وقت قصير بأي شيء».

كانت تود أن تقول: من أي مكان، بعيداً عن تلميحاتك الفظيمة الساخرة ولكنها قالت:

«عرفت أن أمي مشغولة في المطبخ ويوسعي أن أساعدها ولكني لا أعرف أين المطبخ».

«لا تشغلي نفسك بذلك؛ فإن ذلك لا يناسب العمل أمام الموقد الساخن، إنه زي جميل...».

وأضاف في ابتسامة ساخرة:

«المظاهر خادعة حقاً».

وأحسنت توني بأنه ضايقها بما فيه الكفاية، واعتراها الغضب قائلة:

«اسمع يا سيد لورنس؛ ربما كانت لديك أسباب تجعلك تعاملني بهذه الطريقة، ربما تجد سروراً في أن تهاجمني وتهبتي، ولكنني غير راضية على الإطلاق عن ذلك».

ورفع حاجبيه قائلاً:

«أهينك؟ انك تسيئين الظن بي... إنني لا أحاول بتاتاً أن أهينك، أرجو ألا تكوني تعين بذلك انك لا تعرفين قواعد اللعبة».

«أي لعبة؟»

«هناك لعبة واحدة يمكن أن تكون بين أي رجل وفتاة».

«حسناً... إنني لا أعرف قواعد اللعبة، وفي قرارة نفسي أنا فتاة رقيقة ألم أقل لك ذلك؟ بل إنني لا أريد أن أتعلم تلك القواعد».

«ابتسم وهو لا يكاد يصدق، وقال:

«ولكن لا تنتظري مني أن أصدق ذلك، ليس من فتاة مثلك».

وردت عليه في تحد:

«رأي فتاة أنا؟»

وتعرت ملامح وجهه فجأة بطريقة عجيبة، وذهبت السخرية الرقيقة لتحل محلها الصلاة وقال:

«انك تتعلمين سريعاً يا آنسة أنطونيا وارين، هيا سأطوف بك في البيت».

وأمسك برفقها، وقادها عبر الردهة، وظلت للحظة تفكر كيف تجذب ذراعها بعيداً، ولكن أصابعه كانت كالقولاذ من خلال نسيج كمها.



كانت رحلة التعريف بالبيت شيئاً خفيفاً، فقد أخذ يفتح الأبواب المؤدية من الردهة واحداً بعد الآخر، ويقول:

«هذه هي غرفة المكتب يستخدمها بنيامين كمكتب وخلوة، أما هذا الباب فيفتح على غرفة الصباح ووراءها المستنبت الزجاجي، وهذه غرفة الطعام، أما هذه الردهة فتؤدي إلى المطاعم وإلى غرفة التنظيف»  
وحاولت أن تخلف الجرحى وقالت:

«أشعر بأنني احترت تماماً، بيتنا في ديقون بأجمعه يوازي غرفة واحدة من هذه الغرف»

وفتح الباب الأخير، وقال:

«وهذه هي غرفة الجلوس»

ووقفت تنفح من الغرفة الطويلة الناعمة بأبوابها العريضة، وهنا كان الثراء الحقيقي يتمثل في السجادة والستائر والكراسي والأرائك، وفوق النوافذ الطويلة كانت نافذة مروحية غطيت بزجاج ملون بالألوان اللآلئ الغامقة وكانت هناك مناظر جانبية مطعمة بدقة وخزانات ذات واجهات مقوسة لها أبواب زجاجية تسمح برؤية التحف من الفضة والصيني. كانت هناك تحفة كريستال تتدل من السقف تتلألأ كأنها خيوط العنكبوت طعمت بقطرات الندى، وشدها صوت غراي لورنس الجاف إلى الأرض من جديد وهو يقول:

«حسناً»

وعلمت في تعجب:

«إنها أجمل غرفة رأيته في حياتي، لا يمكن الجلوس فيها بالتأكيد، أقصد ليس في مثل هذا اليوم أو العصر، إنها معرض يكفي منه المشاهدة»

ورفع حاجبيه القاتنين، وقال:

«هناك البعض ممن لا يأخذونها هكذا... بل يعتبرونها جزءاً متماً لشخصيتهم، ومرتبة يرون فيها جمالهم الشخصي»

وتقدم عبر الغرفة إلى المدفأة العالية المصنوعة من المرمر وأمسك بصورة فوتوغرافية داخل برواز من الفضة، وقال في حنة:

«ها أنت هنا... والآن هل تفهمين لماذا أثار ظهورك ما أثاره من انطباعات؟»  
وأخذت منه الصورة، وأمسكت بها بين يدي تترعدان... وحملت فيها وأحسنت باحساس غريب وهي تنفح وجه المرأة التي ظن أن بيتها وجه شيء كبير، الشعر الأحمر النعني البراق والبشرة الشقراء القوام، وما تبقى... وهزت رأسها، وأعادت الصورة إلى غراي قائلة:

«لا أنكر وجه الشبه بالطبع! ولكنني لا أظن أنه يستحق تلك الاثارة، إن لها جمالاً حقيقياً لا يوجد لدى»

وأعاد البرواز الفضي إلى المدفأة وقال:

«إنك لا تريه لأنك معتادة عليه، تريه في المرأة، ولكن هل خطر لك أنك لا تريه نفسك أبداً كما يراك الآخرون؟ وإنك تريه نفسك فيما يسمونه قلب الصورة أما إذا وضعت صورتك إلى جوار هذه الصورة فسوف تقرين ما أقول»  
«هذا شيء غرق طاقتي، ومع ذلك أظن أنني لست على هذه الدرجة من الشيء بـ... ميدج»

وعندما استدارت وجدت أمها عند المدخل وقد علاها شيء من الحجل والسعادة، كانت تحمل بعض الأغصان الخضراء، وقالت:

«توتني... حبيبتي... أنت هنا؟ كنت أبحث عنك؟ عيد ميلاد سعيد ولك يا سيد لورنس»

وواصلت تقول:

«طلبت إلى البستاني أن يقطع هذه الأغصان، ولا أستطيع أن أدخل بها حتى لا يتساقط منها شيء، على السجادة الجميلة في الردهة لأننا سنناول عشاءنا هناك»  
فجأة قال غراي:

«آسف، أنا مضطر للاستئذان»

وأوماً لها وانصرف من الغرفة.

وتنهدت السيدة رارين في سعادة وقالت:

«إنه رجل يشير الاحترام»

وانفجرت توتني تقول:



«أراك مستعدة لامتناح الشيطان لو كان مفياً في قصر الطرق البيضاء وألقت بحملها من الأغصان على أرض الردهة وقالت:

«ها هي يا عزيزتي- إذا جئت معي إلى المطبخ أريك مكان السلم، وتستطيعين أن تضعي بعض الأغصان حول الدرايزين. أنا واثقة أنك ستضعينها بطريقة جميلة».

واقيمت إلى المطبخ، وتبعنها توني شاردة بفكرها - لولا ذلك الموقف السخيف من غراي لورنس لاستمتعت حقاً بأقامتها في تلك الفترة ولكنها كانت تحس بالتوتر وبخوف لا تعرف مصدره كما لو كانت حياتها تتعرب رغماً عنها.

ولمخلصت من بعض قلقها وهي تزين الردهة وألقت بكثرة خشبية في النار واختلط عطر خشب شجر التفاح بأريج خشب الصنوبر، كانت الردهة هادئة إلا من قرفة الكتل الخشبية في الموقد تطفح الصمت بين حين وآخر، وصارت تقطع وتقص الأغصان وتصد وتهبط على السلم تضعها حيثما استطاعت، خلف قرون الوعل والسيرف القديمة المعلقة في أعماقها المصقولة بين أعمدة الدرايزين المنقوشة تتل من البهر فوقها بحبال وتضع اكليلاً جميلاً للساعة الأثرية العالية.

ورجعت باقة من نبات طفيل يقول له المذل تحت كومة من الأغصان فأمسكت بها في حيرة، وعند ذاك جاء دومينيك فنش يهبط الدرج مسرعاً وأخذ يحدث في أعجاب، وقال:

«جميل للغاية. أصبح القصر ينتمي إلى عصر ديكنز أين تضعين هذه الباقة الجميلة؟»

وأخذ منها باقة المذل ورفعها إلى أعلى كأنه يستطلع المكان المناسب لها، وقالت:

«ليس لها موضع هنا، سأخذها إلى المطبخ».

وبدا على وجهه الهلع وقال:

«كيف؟ هذه خسارة كبيرة، ينبغي أن نحافظ على التقاليد».

وقيل أن تدرك توني ما كان يحدث، أمسك بالباقة عالياً وعانقها.

وفي تلك اللحظة بالذات انفتح الباب الخارجي، ودخل لورنس إلى الردهة، ولم يبد على دومينيك أي ارتباك بل ألقى بالتحية وهو يقول:

«إننا نجرب باقة المذل إنها ممتازة».

وقدم الباقة إلى غراي في خبث قائلاً:

«جرها بنفسك».

ونظر غراي إليه نظرة صاعقة قائلاً:

«يكلفني ما قلته فيها».

قالها بانقضاب، وسار عبر الردهة، «هيه أين ذهبت عندك بركة عيد الميلاد يا زميل السلاح».

كانت أمامك الفرصة في السيارة ليلة أمس... من المؤسف أنني حضرت على عجل إذ ذاك».

وبلغ غراي باب غرفة المكتب والتفت ينظر إليها وهما يقفان ملتصقين بينما أخذ دومينيك يلوح بباقة المذل بطريقة عارضة بيده اليسرى ودخل غراي الغرفة وأغلقها وهو يقول:

«إذهبا إلى الجحيم».

ونظر دومينيك إلى توني وقد ارتفع حاجباه الأشقران، وقال:

«إنك ساحرة ولقد منه الشيطان».

وألقى بباقة المذل على المنضدة، وقال:

«لا أريد أن أتركك، ولكن لدي مهر ينبغي أن أعني به... ولدي أعمال أخرى، وسوف نلتقي في المساء مرة أخرى وسأحضر شقيقتي معي وأريد أن تقابلها، وأنت في أنكما ستعارفان، هل تعرفين الوقت المفضل للاحتفال؟»

«قالت أمي أنه حوالي السادسة والنصف، أي ميكر قليلاً، ولكنها تريد أن تتيج للخادمتين وقتاً للتنظيف ليعودا إلى القرية في وقت مناسب».

وابتسمت تواصل:

«إنها ولدت لتكون مديرة، أقصد أمي، فهي تهرس على المسائل الصغيرة مثل هذه... وطالما أن مديرة المنزل في المستشفى فإنها تعنى بكل شيء في المطبخ، وهي



لحجب ذلك»

وأوماً دومينيك، وقال:

«من حسن الحظ أنها هنا والا لخرجنا فرحة مائدة عيد الميلاد... تضايقي بنيامين كثيراً عندما حملت السيدة باتسون الى المستشفى، وسعد كثيراً عندما وافقت أمك أن تقوم مقامها، لقد قابلتها مساء أمس لفترة قصيرة وشعرت بأن لديها مقدرة كبيرة وهي لطيفة للغاية»

وابتسمت توني لأطرائه، وقالت:

«إنها طاهرة من الدرجة الأولى كذلك»

ولعل شغفها وقال:

«لا أستطيع أن أنتظر حتى يحين موعد نصيبي من الديك الرومي... أراك حوالي السادسة يا عزيزتي»

وصارت ترقبه وهو يسير عبر الردهة بخطوة الرشيق المتبحر وتذكرت أدريان للمرة الثانية... لم يكن بينها وجه شبه كبير ولكن كان لها خفة الدم والمرح نفسها ورأت فيه تريباقاً يشفي ما يحدته غراي لورنس.

وهبط بنيامين الدرج بينما شرعت توني تزيج بالة الهلّل خلف غصن من نبات الايلكس بأطرافه الشائكة وزهرة الضارب الى البياض كان يزين ساعة الحائط وسمعت وقع خطاه والتفت لتجده يقف خلفها يرقبها في سرور باد.

كان يلبس سترة من اللطيفة الفرنسية والموتوكل يتدلى من شريط حول عنقه. أما شعره الأبيض وذقنه فكانا يدلان على الأناقة، وبدا لتوني أكثر مهابة، واتجهت اليه في شيء من الاستحياء لتقدم له التهئة بعيد الميلاد. وقال:

«وعيد ميلاد أكثر سعادة لك أنت أيضاً يا عزيزتي...»

وعانقها وهو يقول:

«اصقحي عن رجل عجوز يبدو عليه الكسل ويمضي فترة الصباح في فراشه هل تحسن بالراحة بعد ذلك العناء وبعد حادث السيارة المؤسف في الليلة الفائتة؟» وأكدت له توني أنها بحالة طيبة هذا الصباح، وأشار الى الردهة، وقال:

«وهل هذا من صنعك؟ انها مفاجأة سارة للغاية بالنسبة الي، أن أجد هذا المنظر الجميل في استقبالي، لقد مضى زمن طويل لم يسعد الحظ منزلنا بمثل ذلك المظهر في عيد الميلاد منذ أن كانت زوجتي معي. ومضى على ذلك أكثر من عشرين سنة كان من عاداتها أن تحضر الأغصان الخضراء من الحديقة وتعلق الأكاليل كما فعلت، وكانت تقول - انها تحاول أن تجعل المكان يبدو كمنسج لثريمة عيد الميلاد»

وأغرورت عيناه ثم عادت اليه الابتسامة وقال:

«لكن ينبغي ألا أهنئ. لقد من الله عليّ بهدية غالية لم أكن أتوقعها فحضرت أنت وأمك هنا... بل كان هناك منة اضافية لأن أمك تقبلت عن طيب خاطر مسؤولية المطبخ»

«أوه... انها لحب الطهو وتستمتع بكل لحظة في هذا العمل»

«وأمل أن تكوني أنت أيضاً تستمتعين باقامتك معنا هنا»

«نعم... أوه... نعم بالطبع أستمتع»

فالتها وان كانت لم تستطع أن تواجه عينيه.

وعلق في هذا:

«ولكن... بدون محفظات؟»

وابتسمت بسرعة، وقالت:

«أوه، لا تشغل بالك... كل شيء على ما يرام»

«ألا تريدان أن نغيريني؟»

ووضعت يداً على وجنتها، وقالت:

«إنه أمر تافه وأعتقد أنني قد أكون محظنة، إن السيد لورنس لا يكاد يفكر لي أنني أذكره...»

وتوقفت بعدما تذكرت أن بنيامين أيضاً يحب عيدج وأن كان يستمتع بتذكره لأوجه الشبه ولا يشور بسببه كما كان يفعل غراي.

وأوماً بنيامين:

«فكرت في أن هذه هي المشكلة... ولكن لا تشغلي بالك كثيراً يا طفلي العزيزة»



فأنا أعرف غراي كأنه أبني. انه رجل قوي وانفعالاته قوية كذلك وقد يبدو قاسياً ومريراً في بعض الأحيان. ان ما عاناه غراي جعله يتخاصم مع الحياة بعض الوقت ولكنه سوف يجد نفسه حتماً في يوم من الأيام وانني على ثقة من أنك ستجدينه يتحسن مع مرور الوقت».

وأومأت في شكك فقد بدا غراي لها شخصاً لا يمكن أن يلين وقالت: «سأحاول أن أتجاهله عندما يثير غضبي وسوف أحتمل فهي على كل حال فترة قصيرة ولن أضطر لرؤيته على الأغلب بعد عطلة عيد الميلاد».

كان بنيامين ينظر اليها في دهشة وكان على وشك ان يقول شيئاً ولكنه غير رآيه، وقالت توني على عجل:

«أعتقد أنه يسكن في لندن ليكون قريباً من العمل».

كانت تحس احساساً غريباً أن بنيامين كاد يقترح اقتراحاً يحملها فيه التزاماً لم تكن تريد أن تتحمله.

وجلس بنيامين في أحد الكرسي الوثيرة بالقرب من المدفأة بينما جلست توني في الكرسي المقابل له. وأوماً اليها وابتسم ابتسامة أضحت معها أنها مصبر سعادة له. وردت له الابتسامة وهي تحس بدقه الحب يسري في عروقها.

وقال رداً على سؤالها:

«غراي له شقة في لندن. ويسافر الى الخارج كثيراً ولكن انامته لا زالت هنا في الطرق البيضاء. كان و ميدج يقطنان في الجناح الآخر من البيت وظلّ يقيم هنا بعد أن تركتنا. وقد شكرت له ذلك».

ونظر حول الردهة والى البهو فوقها. وواصل يقول:

«هذا البيت اشتراه جدي وعشت هنا طيلة حياتي وفكرت في بيعه والانتقال الى مكان أصغر ولكن ذلك ليس أمراً سهلاً في مثل عمري. انه يزخر بالذكريات بالنسبة الي...».

وأومأت في تعاطف معه ورأته يتحسس أحد جيوبه الداخلية وقال:

«أرجو أن تقبل هذه الهدية المتواضعة بمناسبة عيد الميلاد يا أنطونيا. انها قطعة صغيرة متواضعة، وفنت أنك قد لا ترضين عن أي شيء ملقت للنظر، وقد

صنعها لك جولايتر رئيس العمل بنفسه بعد أن حدثته عنك يا عزيزتي، وكان سعيداً للغاية بهذا التكليف».

وأخذت اللقافة وفتحتها ووجدت داخلها صندوقاً صغيراً عليه حرف وفي ركن منه وفتحته ووجدت بداخله حلقة من حجر الأوبال على سوار ذهبي دقيق.

ولحشت توني وقالت:

«أوه».

وقد بهرها جمال لون الحجر النعيم، كان رائعاً في لون اللهب منطلقاً بلون أزرق غامق وكانت الحلقة محاطة بسياج من الذهب يتشظى مع الشكل الطبيعي للحجر النعيم.

وقالت:

«انها أجمل هدية قدمت لي في حياتي، وها تاريخ ميلادي كذلك؟ كيف عرفت؟»

ولمعت عينا بنيامين الرماديتان وهي: «لما أنها ترى أباهما جالسا أمامها».

وقال:

«ان لي جواسي. العاشر من أكتوبر/تشرين اول اولك هامبتون أليس كذلك؟»

«لقد كلفت نفسك عناء البحث عني فقط...».

وعاودت النظر الى الحلقة المصنوعة من حجر الأوبال، وقالت:

«أشكرك... أشكرك كثيراً... يا عمي العزيز بنيامين».

وقال معلقاً:

«ارتحت تماماً لأنك سررت بها. كنت أخشى ذلك الكبرياء العائلي فيك».

وهزت رأسها ضاحكة، وقالت:

«أكون ساذجة اذا سمحت لكبرياتي السخيف أن يجرمني من هدية مثل هذه. انني أنقلها تعبيراً عن الاحترام والاحلال لروابطي العائلية».

وقال بنيامين في رقة:

«لا، لقا تعبيراً عن استعفافك أنت لها».

ودفع رأسه لينظر عبر كتفي توني، وقال:



لم تكن توني قد عرفت أن غراي يقف هناك وأنه ربما سمع قسماً من الحديث الذي دار بينها وبين عمها بنيامين، ووقف غراي خلف كرسيها ولكنها لم تنظر تجاهه. ولو رأت السخريّة البادية على وجهه فلربما ضاع فرحها بالهدية. وأعادت الحلية بعناية إلى صندوقها الجلدي ووضعتها على الطاولة الصغيرة بجانبها. كان بإمكانه أن ينظر إليها إذا أراد ولكنها كانت تأمل ألا يفعل ذلك. ورأت يديه تتدان لتلتقط الصندوق. وقال:

«إنها قطعة صغيرة جميلة، كانت مارشا على صواب عندما اقترحت سواراً بدلاً من السلسلة، ورأيت أن يضع شيئاً مشابهاً لابنة السيدة ريفز سوف أتكلم مع مارشا في الموضوع.»

وأعاد الصندوق إلى المنضدة وقال بطريقة عارضة:

«هل أعجبتك يا أنطونيا؟ إنك سعيدة المظه»

ونجحت في أن تحتفظ بصوتها هادئاً رغم أنها كانت تتفعل بالفضض:

«بالطبع أعجبتني... انني أحبها.»

كان تعليقه قد حول الهدية الشخصية الثمينة عن عمد إلى موضوع عمل يغفل عن العاطفة. أما كلماتها إليها التي حاول أن يلبسها نغمة الأبهة فكانت شبه اهانة، ثم من كانت مارشا تلك؟

لم يكن بنيامين على استعداد لمناقشة أي موضوع يتصل بالعمل وسأل غراي:

«ماذا تم في اختيار المشروبات الخاصة بالعشاء؟ هل أخذت أية ترتيبات؟»

ووضح من تحويل الحديث أن بنيامين لم يكن غافلاً عن التيارات الخفية التي تدور بين غراي و توني، وواصل بنيامين حديثه قائلاً:

«إن هذه المناسبة يليق بها أفخر المشروبات، فلدينا خيف خاص اليوم يا بني وينبغي أن نهيء لها وقتاً سعيداً حتى تشعر أنها في بيتها معنا.»

وأجاب غراي:

«بكل تأكيد»

ونظر غراي نحو بنيامين وقال:

«سأذهب وأطبخ بنفسي.»

وتركها وانصرف. ونظرت توني بعينين طارفتين تجاه بنيامين، وقالت في استكانة:

«رأيت بنفسك، فالود مفقود تماماً بيننا.»

كان الرجل العجوز يمسح عدسة المونوكل على منديل من الحرير بلون الكريم. وكان يعرف أنه لا يمكن أن يطمع في اجابة ودية من غراي، ولكنه مع ذلك لم يكن يفقد الأمل بل على العكس كان يبدو كأنه ينظر بعين الأمل إلى شيء ما، وقال:

«الصدقة ليست المدخل الوحيد لتحقيق التجاوب بين الرجل والمرأة يكفي أن يكون هناك ثقة لتجاوب بشكل ما كنقطة للبداية.»

واحتاجت إلى لحظة أو لحظتين لكي تفهم ما يعنيه، انفجرت بعدها في تهفئة جاحدة، غراي وهي... لو كانت تلك هي الطريقة التي يفكر بها بنيامين فإنها تكون طريقة ملوثة في الخيال لا تستحق حتى أن تناقش.»

وكان الرجل العجوز يرقبها بعينين كانتا في يوم من الأيام صافيتين كعينيهما، ولكن ما فقدته من الصفاء عبر السنين تم تعويضه بالحكمة والتعقل، والآن كان وهو ينظر إلى توني يلقى التشجيع والتعزيز بما يراه.



## ٥ - الاصل والبديل

ودعشت توني إذ رأت أنها تستمتع بعيد الليلا، وربما كان لعدم ظهور غراي أثناء وجبة الظهيرة داخل في ذلك، وقال بنيامين أن غراي ذهب ليقنع مسؤول الكراج المحلي بجزر السيارة لأصلاحها، وعندما حانت الواحدة ظهرا، ظنوا أن الأمر احتاج إلى وجوده هناك لفترة أطول. وقالت السيدة وارين: «هذه وجبة خفيفة حتى تظل الشهية مفتوحة لوجبة العشاء».

أعدت شطائر باللحم والسلطة وفطائر محشوة بمزيج معروف، وجلس الثلاثة حول طاولة صغيرة. وأطلقت توني أمها على الحلية الأوبال فأبدت السيدة وارين إعجابها الشديد. وكانت هي الأخرى حصلت على صندوق من علب الحلوى المستوردة من باريس وقدمت لبنيامين ثيابة عنها وعن توني هدية تتشبه في نصف دزينة من مناديل اليد المصنوعة من الكتان الأصيل.

وبعد الغداء اقترح بنيامين أن يقوموا بجولة في المزرعة كان المطر قد توقف خلال الليل وكان الجو معتدلاً، ظهرت فيه بعض السحب وقال:

«هذه هي رياضتي اليومية، لن نسير طويلاً، ولكن بالقدر اللازم لصحتي انتي أجد عالمي ينكمش باستمرار، ففي أيام جدي كانت المزرعة كبيرة نوعاً، والآن فإن عملي في لندن يستغرق معظم وقتي، وقد بيعت معظم الأرض هنا لأشخاص يستطيعون أن يجعلوها تنتج أفضل بكثير مما أستطيع».

وداروا حول المرج حيث كانت الأغنام ترعى العشب، بين الأشجار الضخمة، وانتهوا عند الاسطبل ليرا المهر الجديد... كان يرقد متبذرا على العشب الجاف في

منظر يستحوذ على الإعجاب وبلي رضى كامل وبالقرب منه أمه بلونها الكستنائي الجميل تمضغ الطعام في هدوء. وعلق بنيامين عندما رأي توني وأمها تأخذها النشوة بسبب المهر قاتلاً:

«لم أستطع مقاومة الرغبة في الحفاظ على نسل كليتيننا كانت فرس طيبتني وأحببت لها الاستمرار، وكان من علة ميدج وغراي أن يركبا الخيل كثيراً. وهذا هو حصان غراي لوسيفر... إنه حصان عتيق ولكن غراي لا يجد صعوبة في أن يمسوه».

وعندما اقتربوا من الحصان أدار رأسه واتسع ثقباً أنفه ورأت توني أنه بالفعل الحصان الذي يناسب غراي لورنس.

واحمد بنيامين ليختبر باب الاسطبل ولينأكد أن لوسيفر لن يستطيع أن يهجم عليهم، وصهل الحصان في غضب، وابتسم بنيامين ساخراً يقول: «وأحببت أن أطمئن فأنا لست فارساً، وماذا عنك يا أنطونيا؟ هل تركبين الخيل؟» وأجابته:

«كنت أركب أحياناً فقد كانت لي صديقة في المدرسة شقوفة بركوب الخيل، وأصر أبوها على أن يدفع لي رسوم التدريب حتى أكون في صحة دينييز وعندما تركت المدرسة راحلت دينييز تعليمها في الجامعة وانقطعت الدروس».

وأوماً قاتلاً:

«ينبغي أن تتدربي من جديد، ستجدين في غراي مدرباً ممتازاً لن يتردد في اصطحابك معه في يوم ما».

وخطر لتوني أنه يمزح، ونظرت إليه ولكنه لم يبد كذلك، وابتسمت أمها وقالت:

«ان توني تعشق ذلك! أليس كذلك يا توني؟»

واصططعت توني صريراً لا يعبر عن معنى، ثم التفتت إلى المهر ثانية لتلقي عليه نظرة أخرى.

وسمع صوت سيارة كان غراي نفسه يقودها إلى الساحة الداخلية ونزل عن



مقعد القيادة واتجه ناحيتهم يقول:

«ها نحن على الطريق مرة أخرى، كل شيء تخلص من الليل ويسير على مايرام، إن  
دكن . عامل ممتاز ولكن السيدة دكن غاضبة فقد أخرجت زوجها عن  
عشاء عيد الميلاد»

وتثبت توني بباب الاسطبل فقد أثار ظهور ذلك الرجل المفاجيء قلقها  
واضطربت دقات قلبها، كان كل شيء هادئاً وأمناً في الساحة ولكنه ظهر ليدمر  
الهدوء بخشونته المشيرة للقلق.

وقال بنيامين:

«كنا نتفرج على الجياد ياغراي وبالنسبة فإن أنطونيا تركب الخيل ويسعدنا  
أن تصحبها في نزهة على ظهر الفرس عندما تستعيد كليبتينا صحتها من  
جديد. والتفت الرأس القاتم تجاهها يقول:

«صحيح يا أنطونيا؟ تسعين بصحيتي؟»

وبدت كلالته غاية في المزاينة، ولكنها أحست فيها بنغمة السخرية وعلمت:  
«أكون في منتهى السعادة»

وسار الجميع تجاه البيت ولزمت توني جوار بنيامين، وكانت تستطيع أن  
تسمع أمها خلفها تتحدث مع غراي الذي لم يبد اهتماماً بحدثها.

كانت وجبة عشاء عيد الميلاد قد قاربت نهايتها، وتوردت وجستا السيدة  
وارين حياء من الثناء الذي حظيت به لجهدها، حتى توني التي كانت  
تعرف جيداً مهارة أمها في الظهور أبدت استحسانها، كانت تجلس في موضع  
الشرف عن بين بنيامين وزال عنها إلتعاطها بالاضطراب من أثر الشراب  
الفاخر الذي قدمته شيرلي والفتاة الأخرى. كان كل شيء مفعماً بالسعادة  
وبروح الأسرة، لم يكن ثمة ضيوف ينكلفون أو خدم مائدة أو سقات يلتزمون  
بالرسميات ولم تكن هناك كذلك صنوف من أدوات المائدة تشبه الأرتياك، مجرد  
عشاء عادي تتناوله أسرة عادية كان دومينيك يجلس إلى جوارها وأخته آن  
تجلس أمامها. وهي فتاة جميلة سمراء ذات عينين جادتين وكان هناك كذلك

غراي لورنس ولم تكن راغبة في أن تعتبره سوباً بأي معيار ولو كان بالامكان  
تجاهله لبدأ كل شيء آخر ممتازاً.

كانت توني تليس فستان السهرة الأزرق بفتحة عنقه الواسعة وبأساوره  
المكشكشة المصنوعة من الجورجيت وقد ثبتت حلقة الأوبال حول عنقها  
وأسندت ظهرها إلى الكرسي تحاول أن تكسر شعرة من ثمار الجوز، وجاءها صوت  
دومينيك الضاحك يقول:

«ليس هكذا! هذه هي الطريقة التي تنكسر بها...»

وجذب كرسيه إلى جوارها وأخذ كسارة البندى وكسر الشعرة عند منتصفها.

وعلمت قائلة:

«ممتاز»

وأخرجت المحتوى من أحد النصفين وقدمته إليه قائلة:

«للتقاسم»

وأخذ قطعة الجوز واستقرت يده على يدها بعض الشيء وقال:

«أحب أن تقاسم أكثر من ذلك يا عزيزتي»

وابتمست له قائلة:

«لا؟ حقيقة؟»

كان في عينيها أقرب شياً بأدريان له الروح نفسها التي تجعل للحياة نكهة  
المرح، ونظرت توني بالتقدير نحو أن التي كانت تقص على بنيامين  
أخبار مادة القنون التي تدرسها كانت تبدو أكبر بكثير من دومينيك، في أواخر  
العقد الثالث من عمرها تقريباً، وقالت لدومينيك:

«وأنتك لطيفة للغاية»

وألقي نظرة عبر المائدة، وقال:

«إنها كذلك وهي أيضاً طاهرة ممتازة، وتعني هي جيداً»

«هل تعيشان وحدكما؟»

«نعم منذ وفاة أبونا، لابد أن تأتي لتزوري كوخنا الصغير إنه جميل على غير



عادة، وأعتقد أنه بنى أصلاً للراعي عندما كانت هذه مزرعة بالفعل...  
وليست...

ونظر إلى بنيامين الذي كان لا يزال يحدث أن، وواصل:  
«حسناً... وليست ملهاة لأحد الأثرياء»

«هل تظن أنها هكذا؟»

«وهل هي غير ذلك؟»

وواصل في صوت خفيض:

«من المفروض أنني مدير للمزرعة ولكن لا يوجد ما يستحق أن يدار، انني أطلع  
أحياناً إلى أن أوتي عملاً يتناسب مع قدرتي كرجل، شيء يرضيني حقاً»  
«ولماذا لا تفعل؟»

«قد أفعل في يوم من الأيام عندما تحفظ أن، إذ لا أستطيع أن أتركها وحدها...»  
«ولكن ألا تستطيع أن تذهب معها؟ إنها مترسة. وتستطيع أن تجد عملاً في أي  
مكان»

وزم شفتيه وهز رأسه قائلاً:

«المكان الذي أحلم به هو أستراليا. الأرض الواسعة الرحبة ولكن أن لا تريد  
أن تهاجر»

وعلمت توني تقول:

«إستراليا تجتذب الفلاحين، كان لي صديق ذهب ليعمل بالزراعة هناك»

«ولم تذهبي معه؟»

وقالت في مرارة:

«لم يطلب مني»

وعبر دومينيك عن استناده قائلاً:

«إنه غبي! تبتشي يا حبيبتي! سأطلب منك أن تصحبيني عندما أفكر في  
الذهاب»

«نعم... أفعل وأسجلها عليك»

وهنكت، وعانقها عناقاً سريعاً مرحاً.

والثفت غراي إلى السيدة وارين وقالت شيئاً، وطاقات ببصرها حول

المائدة، ثم نظرت إلى بنيامين وقالت:

«أين تشرب القهوة يا بنيامين؟»

«في غرفة المكتب إذا وافق الآخرون»

وهمس «دومينيك إلى توني:

«الرجل العجوز لا يرغب في أن يدخل إلى غرفة الجلوس هذه الأيام كانت مبدج  
نحب أن نجلس هناك»

ونفضت السيدة وارين، وجذب غراي الكرسي الذي كانت تجلس عليه  
إلى الخلف وقالت:

«سنترككم أيها الرجال مع شرايكم بعض الوقت»

وانجهت إلى المطبخ لتعني بصنع القهوة.

وصعدت أن مع توني إلى غرفة نومها لتعني بظهورها وجلست أن على  
الكرسي القصير المستدير أمام التريجة، وفتحت حقيبة يدها لتخرج المشط

وتنهدت قائلة:

«كانت وجبة شهية... إن أمك طاهية ممتازة... وكانت بطة إذ أنهزت كل هذا بعد  
أن نقلت أدا المسكينة للمستشفى، وكان السيد وارين قلقاً... ويرجع الفضل

لأمك»

وأخذت قشط شعرها ثم التفتت إلى توني التي كانت تحبب يدها وقالت:

«كيف يكون احساس الفتاة عندما تعرف فجأة أنها أصبحت وريثة من لا شيء»  
ورددت توني في دهشة:

«وريثة؟ من قال ذلك؟»

«أره يا عزيزتي! هل أخطأت القول؟ فهمت بما قاله دومينيك أن كل شيء تم  
ترتيبه، وأنتك ستعيشين هنا، وفرحت للغاية وهذا لي الموضوع كأنه قصة خرافية

قلنا يحدث مثلها هذه الأيام. وانتي أسفة إذ تكلمت قبل الاوان!»



واسترخت على الكرسي من جديد، وقالت توني:

«لا تتضايق! كانت غلطة غير مقصودة، ولكنها صدمتني للحظة، وكما ترى فقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة حتى أنني لم أشعر بالحيرة. كنت دائما أستطيع أن أتحكم في شعوري وأتخذ القرارات لنفسي وأجدي الآن غير واثقة من أي شيء».

وأومأت أن في تعاطف، وقالت:

«أنهم! أنتي كأمراة متأثر بإحساساتك، والآن قلبي أنك صفت عن تدخل في شؤونك، ولكي تبرهن على صفحك ستأتين وتشررين القهوة معي في يوم قريب قبل أن ترجعي إلى لندن».

وقالت توني:

«سأزورك بالتأكيد! ما الموعد الذي يناسبك؟»

«غدا؟ صباحا؟»

«حسنا، أحرص على الوفاء بالموعد».

وأخذا هبطان الدرج من جديد، ولم تكن توني تدري أنه مع شروق شمس اليوم التالي سيتغير خط حياتها كله.

كان الرجال قد جلسوا في خجرة المكتب عندما دخلنا وكانت مسز وارين تصب القهوة من براد كبير على تضد جانبي. وأبسم بنيامين لتوني عندما حملت له فتجان القهوة... وكان يقلب صفحات اليوم يحوي بعض الصور... أحضرته مسز وارين... وجلست توني على السجادة عند قدميه توضع له مناسبات الصور القديمة نوعا... وقد أخذت بعض الصور قبل مولدها وظهر أبوها في كثير من هذه الصور.

وشرب دومينيك القهوة ثم استأذن في الانصراف ليطمئن على المهر الجديد...

وجلست أن مع غراي على إحدى الأرائك في أسفل النافذة وقالت:

«أوه! هل لي أن أرافقك... لم أر المهر بعد».

ونفض غراي ليصحبها، ونظر دومينيك إلى توني يدعوها للذهاب معهم، ولكن بنيامين وضع إحدى يديه عليها قائلاً:

«ستبقى أنطونيا في صحبة الرجل العجوز... أليس كذلك يا أنطونيا؟»

وقالت على الفور:

«بالطبع، سأبقى معك».

وجذبت السيدة وارين الحبل الحريري المتصل بالجرس تتنادي شيرلي، وصحبها ثانية إلى المطبخ لتشرف على عملية التنظيف، وتهدد بنيامين يقول:

«أمك معجزة! وهي سعيدة تماماً بكل ما حولها».

وأجابته:

«إنها بالفعل كذلك».

«أنا معجب بأمشاطها، وأتعجب كيف يكون حال العالم بدونهن».

وصمت بنيامين لحظة وحدث تجاه المدفأة وواصل يقول:

«أثبتت أنها الشخص العملي الذي حقق السعادة لي في يوم لن أنسا وأمل أن تطول أيام السعادة هذه بعد أن وجدت لنفسي أسرة من جديد».

ورفع المونوكل عن عينيه وصار يلوح به إلى الأمام وإلى الخلف وقال:

«أناك تفهمين ما أحاول قوله، لقد دخلت حياتي، وأطلب اليك يا أنطونيا أن تبقي لا كزائر عابر ولكن كجزء لا يتجزأ مني. أطلب اليك ألا تلطعي الصلة مرة أخرى بل أن تعززيها. هناك تفاصيل كثيرة تحتاج إلى مناقشة. ولكنني أستجيب لكل ما تطلبينه إذا وافقت ولأملك الحق في كل شيء، وأود أن أوضح أنني لا أريد أن تخضعي لمشينة أي شخص ولا أن تكوني بديلة. أنني أطلبك لشخصك أنت وأحس بأنني أعرفك من قبل وأحبك. لن أحاول أن أؤثر عليك أو أقدم لك إغراء لأنني على ثقة أن فيك كبرياء أسرة وارين. كم تمنيت ألا يكون لي هذا الثراء حتى أكون أقرب اليك وأقنى ألا تتركيني!».

كان ينبغي إلى الأمام في كرسيه وأحست بأنه كان يتطلع إليها في صبر وثبات وكانت تتوقع ذلك منه ولكن ليس بمثل هذه السرعة. وكان عليها أن تتخذ



القرار. كان اختياراً محدداً فمن ناحية المال والمركز والجاه كلها رهن اشارتها ومن ناحية الاستقلال الشخصي فشعورها بأن ما علكه جاء بعرقها وعملها... وتذكرت تقدير السيدة بلاك لها وأنها من خلال عملها يمكن أن تصل إلى مركز مرموق... سكرتيرة شخصية مثلاً وربما وظيفة أعلى، وتذكرت الأغنية:

والذي هو اعظم من ذلك انني وصلت اليه بنفسى؟

وواصل بنيامين يقول:

«انتهى لا أنتظر جواباً الآن، فقط فكري في الأمر».

وقالت وعينها تفرورقان بالدموع:

«سوف أفعل! إنه عرض كريم، وإني لحماقة مني ألا أقبله، ولكن...».

«لا أحب أن أسمعك تقولين ذلك».

ورفع يده ليقطع عليها الكلام ولأول مرة رأت الجانب الآخر من شخصيته.

رأته كرجل أعمال حاذق يحسن إدارة المواقف كما تحدث عنه غراي لورنس

«رجل أعمال ممتاز وشاعر بالنظرة».

ولكن لماذا غراي لورنس في تلك اللحظة بالذات؟ كان بنيامين لا يزال

ينظر إليها، ووضع يده على كتفها وقال:

«لا تشغلي بالك يا أنطونيا! فكري بالأمر. ثم اعطني رأيك، وسأرحب به».

وتوافد الآخرون وأصبح الحديث عاماً. وأحضر غراي آلة تسجيل وأدار

سيمفونية موزارت المفضلة لدى بنيامين. ثم انتشر إحدى اللعيبات

المفضلة لديه كذلك وتبعته أحاديث هادئة نجح غراي في أن يجعل بنيامين

خلالها يحكي بعض القصص المضحكة عن أسفاره إلى الأماكن البعيدة

واستمع بنيامين تماماً بالسهرة وعند الحادية عشرة نهض وأعلن أن موعد نومه

قد فات وشكر الجميع على مؤانستهم له في عيد الميلاد.

وقالت السيدة وارين:

«سوف أصعد أنا أيضاً وأترك الشباب يواصلون مرحهم على طريقتهن».

وابتسمت في سعادة للرجل المعجوز مع ثنيات ليلة سعيدة، وخرجوا سوياً

يتحدثان حديثاً ودياً.

ويجلس غراي إلى جوار أن على الأريكة وكانا قد قضيا معظم الأسبوع

هناك. ولاحظت توني من حين لآخر أنها يتحدثان ويتبادلان النظرات ورأته

يتسم لأن ويتحني تجاهها ويحدد ساقيه في استرخاء. وحولت نظرها بعيداً بعدما

رأت كيف يسلك مع الفتاة التي يستلطفها ويعجب بها.

وجاء دومينيك ليجلس على ذراع كرسى توني ويقول:

«ماذا تفعل الآن؟ تطلق في حفل صاخب؟»

وعبت شقيقته في وجهه وقالت:

«لا... يانيكي! أمضينا عيد ميلاد هادي. اجعله يستمر هكذا ولا تجعله يتحول

إلى صخب! هل توافقني يا غراي؟»

وابتسم غراي قائلاً:

«أوافقك تماماً... ولكن لنأخذ رأي أنطونيا! فهي ضيفة شرفنا».

وساد الغرفة شيء من الصمت ثم ضحككت أن وقالت:

«أرى أن مزاجك يأخذ طابع السخرية يا غراي».

وأعبت توني أنه لم يكن يقصد مزاحاً على الإطلاق كانت كلماته إهانة

مقصودة. كان يريد أن يجعلها تحس بأنها غريبة، ولم تستطع أن تحول بصرها

بعيداً إزاء نظراته التي تتعدها، وثار الغضب في نفسها بشكل لم تحس به من

قبل في حياتها وأرادت أن تعبر الغرفة لتصفعه ولتنزع الابتسامة الساخرة من

فمه... حتى تداعى خيالها...

وتحدثت، وخيل إليها خلال ذلك أنها تسمع صوت شخص آخر يقول:

«أرد أن أقول، انه لا يعني كثيراً أن ألقى الاحترام بوصفي ضيفة فربما يحسكم أن

تعرفوا أن عمي بنيامين طلب إلي أن أقيم في قصر الطرق البيضاء كجزء

من أسرته ووافقت».

ولم تذكر توني وقع تلك الكلمات على الموجودين... كل ما ذكرته أن أن

قيلتها وكانت فرحة... وأن دومينيك علق بملاحظة فكهة حول جعل المنزل



القديم يزهر بالضياء مرة أخرى أما غراي فلم تعرف ما علق به... اضطرها الى أن تعلق بطريقة فيها شيء من الدراما والتعدي... لم تكن تعرف عن نفسها التهور ولكن ذلك الرجل استطاع أن يجعلها تخرج عن هدوتها وأن تقلب عالمها رأساً على عقب وحصلت على نصر صغير وأحست بالرهق لأنها سوف تفرض عليه وجودها هنا وأتعت نفسها بأنها أصابته.

ولم يبد عليه أي تأثير ظاهري بالغضب، ونهض وسار الى الطاولة. وقال: «هذا... يحتاج الى شراب... أن، دومينيك، لنشرب معا نخب أنطونيا» وملاً الكؤوس، ورفع كأسه وحذا الآخرون خذوه. وقال: «في صحة الأنسة أنطونيا وارين وأسة وارين» وعلقت أنطونيا قائلة:

«أشكركم، والآن أقترح أن نشرب نخباً في صحة بنيامين وارين وأكرم رجل عرفته».

وشرب الجميع نخب بنيامين وارين، ووضعت أن كأسها وقالت في سرور كامل:

«حسناً، جسم الموضوع، وفرحي لا تقدر يا أنطونيا! انتي على ثقة أنك اتخذت القرار الصحيح، إنه يعني الكثير للسيد وارين العجوز، والجميل فعلاً أننا أصبحنا جيراناً».

وابتمت توني في مودة الى أن وخطر لها - لو أن غراي قبل الزواج من تلك الفتاة فانه يكون سعيد الحظ لأنها سوف تروضه، وقالت: «أشكرك يا أن، وأحب أن يتاديني أصدقائي بأسم توني» وتدخل دومينيك يقول:

«لكن سأفعل ياتوني... توني... نعم... انتي أستلطف الاسم، ان له وقعاً... والآن فلن ملقي من الليل لا يزال طويلاً وما زلت ألح في ان نقيم حفلاً بمناسبة. ملأ أياكم؟»

وردت أن في تأكيد

«أرحني من هذا يا اخي! فانتني أشعر بالنعاس» وتدخل دومينيك عن الفكرة على مضض، وقال: «حسناً، سنزجل الاحتفال الى يوم آخر، ولعلك توافقين ياتوني» واقترب منها يقول:

«مارأيك ان نتناول العشاء معاً هذا الأسرع»

وقبل أن تجيب، تدخل غراي قائلاً:

«لا أستطيع تلبية هذه الدعوة...»

وهز دومينيك رأسه وبرزت ذلته في لحد، وقال:

«لم أكن أدعوك يا صديقي»

وبرزت العداوة بين الشابين بطريقة مكشوفة، وخشيت توني أن ينتهي يوم

عيد الميلاد بمثل تلك النغمة، فابتسمت لدومينيك قائلة:

«أشكرك على دعوتي... وأغنى أن أقبلها، ولكن هل لديك مانع في أن نؤجلها بضعة أيام، فهناك أشياء كثيرة يجب أن تتم، وسوف يكون بوسعي أن أراك من وقت لآخر، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد ستريتنى! حسناً، لتصرف الآن يأن أن»

وتفتح غراي الباب الأمامي لها وقالت أن:

«سأراك صباح الغد إذا ياتوني، حوالي الحادية عشرة، ولكن إذا لم تستطعي أن تحضري فانتني أفقر الظروف، وكوحننا قريب بعد المرج عبر الحديقة الخلفية وهناك قشال تين من الحجر على المدخل»

ووضعت ذراعها الخلفية في ذراع أخيها، وقالت: ليلة سعيدة عندما وصلا الى أسفل الدرج اختفيا في الظلام.

ورجعت توني على أمل أن يتصرف غراي كذلك ولم تكن راغبة في أن تدخل أي صراع تلك الأمسية، ولكنه كان يقف هناك ينظر اليها بقامته الفارغة، كان وسياً في بذلته القاتمة وفي قميصه الكتان الأبيض، وقال:

«جميل، جميل للغاية! إذا سويت كل شيء مع بنيامين بالفعل ولم تضيعي



وقتها، أنك انتهازية ماهرة يا مس. وارين»

كانت الاضامة معتمة في الزدعة وكان وجهه في الظل لكنها كانت تتخيل النظرة الساخرة في هاتين العينين المنقطتين، ولحين حفظها كان يقف على مسافة منها، وردت قائلة:

«لا أعتقد أن لدى أي منا ما يقوله للآخر يا سيد لورنس»

وحاولت أن تمر لتصعد الدرج لكنه مد ذراعه بسد الطريق أمامها، وقال في هدوء:

«على العكس، لدينا أشياء كثيرة يقولها كل منا للآخر، وكما أوضح صديقك دومينيك فالوقت لا يزال مبكراً وأعتقد أنك لا تودين الصعود للرقاد وحيدة الآن»

وأصرعت ضربات قلبها وأحست أنه رجل لا يطاق، ووضع يده إلى مرفقها، وقال:

«تعال... أراك تواقفة إلى أن تمرقشني أرباً لتجلس وتنتظار بأن كلا منا يستلطف الآخر، ولتشرب شراب الرفاق»

ووجدت نفسها في غرفة المكتب للمرة الثانية وهي لا تدري كيف وصلت ودفعها دفعة خفيفة إلى الأريكة الجلدية بالقرب من المدفأة وقال:

«أي شراب تفضلين؟ دعيني أقدم لك الشراب الذي يفضل به بنيامين كخاتمة لهذه الليلة»

«لا، أرجوك لا شيء، بالمرة شربت ما فيه الكفاية»

ونظر إليها يقول:

«مازلت تحشيشني؟ أم تحشيش نفسك؟»

واعتبرت أن تلك الملاحظة لا تستحق التعليق، وجلست متصلة في المقعد صامتة.

ورضع كأساً على المنضدة قريباً منها وقال:

«لن يتقص هذا من رغبتك في المشاجرة شيئاً، أعذك بذلك، وإذا كنت مصممة

على الشجار فلنتشاجر في هدوء»

وأشغل مصباحاً قزمياً وأطفأ الضوء الرئيسي في الغرفة، وجلس إلى جوارها ومدد ساقيه وأخذ يتنهد في رضى وقال:

«هذا أسعد أوقات اليوم، في صحبة مناسبة، والآن، أطلقني رصاصاتك»

كان يلهم كأنها سمكة حول السنارة، فحصد دقائق قليلة كانت غاضبة تكاد تسلخه من الفضف، والآن نسيت تماماً، وأخذت رشقة من الشراب لتدعم شجاعته، وقالت:

«كنت بيسطرة أريد أن أقول أن... أنني أعترض تدخلك»

ولم تستطع أن تقول شيئاً أكثر من ذلك.

«تدخل بينك وبين المحترم دومينيك لاعلى الإطلاق! كنت فقط أذكرك كما

قلت بنفسك قماً بعد أنك ستكونين مشغولة للغاية في الأيام القليلة المقبلة»

«لكن الأمر لم يبد لي هكذا»

«لا! كيف بدا لك إذا؟»

وبدا كما لو كنت ثقيللاً بدرجة لا يمكن احتياها، وأحب أن تعرف يا سيد لورنس

أنني أختار أصدقائي بحرية كاملة، ولا أنوي أن أطلب نصيحتك حول من يقع عليه اختياري»

وقال في نعمة:

«دانا أتق أنك لن تفعل ذلك! وأعترف أنني لم أر من قبل من هو في مثل

صلايتك وعنادك»

«اذن أنت ترى أنني صلبة وعنيدة الآن كما ترى كذلك أنني أنت...»

وأكمل لها الكلمة:

«انتهازية، ولكن ينبغي ألا تأخذي ذلك على أنه اهانة، لبعض أصدقائي

المخلصين وزملاء العمل يتحدثون الانتهازية بل أقول انهم لم يكونوا لينجحوا

في العمل بدون قدر يسير من تلك الصفة... وقد يرى الجنس الآخر في هذه

الكلمة شيئاً لا يصل إلى المديح»



وأضاف :

«أعترف بذلك - وأعتذر إذا كنت أخذتها مأخذاً آخر»  
ونظرت إليه نظرة حقد وكراهية وقالت في حرص :  
«لا تحاول أن تعتذر - فأنا لا أهتم كثيراً برأيك في»  
وسألتها في رقة:

«معا يا أنطونيا»

وامتد ذراعه، وتراجعت على مقعدها، ولكنه أخذ كأسه فقط . وأمسك بالكأس  
بين يديه، وضاعت عيناه عندما التقيا مع عينيها عبر حافة الكأس وقال:  
«ولكن ينبغي أن تعرفي أن المناورة كانت ماهرة للغاية في اختيار الوقت والظروف  
المناسبة، ولا يمكنك أن تلوميني عندما أعتبرها انتهائية»  
ورفعت رأسها وقالت في انتصاب :

«لن تفهم إطلاقاً أن دواقعي تختلف تماماً عما هو في رأسك، لكنني تصرفت  
انطلاقاً من احترامي لشاعر الآخرين»

وتراجع إلى الخلف وعيناه نصف مغضبتين وقال:

«تقصدين من؟»

«العم بنيامين بصفة خاصة فهو يلح أن أكون معه ثم أمي التي لم تكن  
حياتها سهلة وأريد أن أعرفها عما قدمته لي»

وتشلق يقول :

«أهداف خالصة... ليس فيها شيء من الأنانية»

«ولم لا؟ هل غريب أن يكون بعض الناس غير أنانيين؟»

وعلق :

«بالنسبة إلي فإننا جميعاً أنانيون»

هذه نظرة حيوانية ساخرة»

«نعم... وبناء على ذلك أكون أنا شخصياً حيوانياً ساخراً... كان ينبغي أن أعرك  
أنك اكتشفت ذلك الآن»

وقالت في انتصاب :

«اكتشفت ذلك»

وأدارت رأسها بعيداً وتهدل شعرها الذهبي على ظهرها. وتبع ذلك صمت كان  
يئثر بخطر وفكرت فيما يمكن أن يفعله لو أنها نهضت واتجهت إلى الباب، ولكنها  
أحسّت بساقيها لا تنويان على حملها. وقطع صوت غراي الصمت بقوله في رقة:  
«هناك فتاة يا توني... وتعرفين ذلك بالطبع»

وأدارت رأسها وتوجست منه شيئاً لم تكن لتخطئه هذه المرة في عيشه وجف  
حلقها واضطربت أنفاسها وحولت عينيها بعيداً عن عينيها اللطفتين ونظرت إلى  
يده التي تستقر على الأريكة ورأت أصابعه على بعد بوصات قليلة من فستانها  
الحريزي.

وفجأة انكشفت الواجهة التي يستتر وراءها وامتلأ وجهه بالغضب وتكسر  
صوته بالانفعال قائلاً:

«ما الذي جعلك تأتيين إلى هنا؟ يا للشيطان لتعذيبي»

وتبادلا النظرات في الضؤ المعتم وتحركت يده لتمتد لجهاها وانددت أصابعه  
تتخلل شعرها وتسللت ولم تعد تسيطر على نفسها والترب منها. وعرفت بطريقة  
غامضة أن هذا ما كان يصبر إليه وعندما كانت مياه الفيضان تحيط بها من كل  
مكان.

كان وجهه شديد القرب منها ولم تكن في الضؤ المعتم ترى فيه أي عاطفة بل  
لم تكن لتصدق أن لديه شيئاً من ذلك.

وكانت واهنة تطفو على موجتي المد والجزر.

ودق جرس الهاتف عبر الغرفة، واعتدل رأسه إلى الخلف وسكنت ذراعه وانتظر  
أن يتوقف الجهاز عن الرنين، ولكنه استمر بدون توقف يتردد صوته في أرجاء  
المنزل القديم الهادي، وأخيراً توقف الرنين، وأطلق غراي أنفاسه ونغم بشيء لم  
تسمعه توني فقد بدأ الهاتف يدق ثانية قبل أن يتم ما يتم به.

وسمعت ما قاله غراي عند ذلك جيداً... كان يطلق الكلمات بطريقة



واعية، وهو يسير عبر الغرفة، وقال:

«نعم! من!»

ونظر الى توني، وهو كئيب، وأشار اليها بأن تبقى حيث هي، وقال للمرة الثانية:

«من؟ لا أستطيع أن أسمع... الخط سيء... آوه مارشا، هل هذا وقت مخاطر؟ نعم... أعرف أنني قلت... ولكننا في الريف هنا... وكل شخص يذهب الى الفراش في وقت مبكر، ماذا؟»

وضحك

«لا بالطبع، لم أكن كذلك...»

أدار ظهره الى توني، لمنهضت في هدوء وتسللت وتوقفت في الرعدة لحظة، وقد جف فيها وأخذ قلبها يهتز في جلع، ثم صعدت الدرج بسرعة الى غرفتها كأنه الشيطان في أثرها.

ولم تحاول أن تأوي الى الفراش لفترة طويلة، بل جلست على حافة الفراش ترتعد من الداخل، وحاولت أن تهدئ نفسها باستعراض أحداث ذلك اليوم الغريب، وسرعان ما أدركت أن عقلها لم يكن يعمل على الإطلاق بينما كانت انفعالاتها تعمل طوال الوقت. وكان غراي لورنس هو السبب... وأدركت رغم صعوبة خبرتها أن له جاذبية جديدة تكفي لجذبها، لا يستطيع امرأة أن تفكر فيها.

ثم بعد لحظات عاد للتفكير في أحاسيسه لمرحلة، كان يحب زوجته بعنف وكانت هي شديدة الشبه بميدج الفرجة جذبت إليها رغم مشيئته، واتضح لها حقيقة الموقف، كان موقفًا صعبًا، لا يمحتمل، ومع ذلك قبلت الانسراج بنيامين بالاقامة معه في البيت، وهكذا لن تستطيع أن تظاير رؤية غراي بما تعنيه من مزالق الخطر.

وتهدت في عرق، وتهضت لتفصل وجهها وتنظف أسنانها، سوف تنضج الأمور أكثر، لقد اتخذت قرارها الآن ولم يكن من اليسير أن ترجع عنه رغم أن

بنيامين لم يعرف به بعد، وكان عليها أن تخبره في أقرب فرصة، في صباح اليوم التالي إذ لا يلبث أن يسمع بقرارها من غراي وليس منها.

دخلت ملابسها وأوت الى الفراش الوثير ونظرت حولها الى الأثاث الفاخر، ان أية فتاة تكون بلهاء لو أنها أصاعت فرصة الحياة في بيت مثله؛ اذ لماذا تسمح لأرام غراي لورنس بأن تتدخل في قرارها؟ وعلى أي حال فعندما تنتهي عطلة عيد الميلاد عليه أن يكون في لندن معظم الوقت، وعندما يحضر سوف يعتاد رؤيتها في المكان، ولن يكون لوجه الشبه بينها وبين ميدج أي تأثير عليه عندئذ، فأمامه بنات كثيرات، أن التي كانت تضحك وتعبث معه، كان من الواضح أنها يستلطفان بعضهما الى حد كبير، ثم هناك مارشا التي طلبته في وقت متأخر من الليل مما يدل أنها صديقة حميمة، ولكن من المؤكد أن هناك أخريات كثيرات يتجذبن بسحره، وعليها فقط أن تتذكر أنها ليست مثلهن، وعندما يحين الوقت ستجد من يحبها لذاتها، أنطونيا وارين... وليست البديل لشخص آخر...



وحدثت السيدة وارين فيها وقد تسمرت سكونة قطع الحيز في الهواء وقالت:  
«أقيم هناك»

وكررتها في بلاهة

وأومأت توني ثلاثة

«طلب مني عمي بنيامين مساء أمس أن تقيم معه»

وبلغت أمها ريقها وقالت:

«وأنت ... قيلي؟»

وايتمست توني وقالت:

«أليس شيئاً غريباً؟ أنا بكبرياتي السيء الذي لا يفارقتي؛ ولكنني وافقت أو على  
الأصح اشترطت أن توافقي يا أمي»

«إنني ... إنني ...»

وقاصت السيدة وارين في أحد كراسي المطبخ، وانهمرت باكياً، لم تر  
توني أمها تبكي من قبل، وأدركت بأن الفرح المفاجيء قد يؤدي إلى صدمة  
تماماً كالخزن المفاجيء، ومسحت أمها عينها أخيراً وقالت:

«أسفة يا عزيزتي ... كان ذلك أكثر مما أحمل، وقد جاء فجأة، ظلمت أحلم واثق في  
أنه سيحدث ...»

وايتمست توني في مرارة، وقالت:

«صنعت أكثر من الحلم والتمنى، أعطيت الأحداث دفعة قوية عندما ذهبت إلى  
وارينز وسلمت ذلك الخطاب يوم أجريت المقابلة»

ونظرت أمها في قلق تقول:

«لن تلوميني من جديد بسبب ذلك يا عزيزتي؛ أردت لك حياة سعيدة يا توني»  
«أعرف، وفي أي حال كان علي أن ألخذ قراراتي بنفسى ... فقط يبدو لي كل شيء  
وكأنه قصة خيالية أقوم فيها بدور سندريلا»

وايتمست السيدة وارين، وربت على شعرايتها، وقالت:

«إنك أجمل سندريلا، وسوف يأتي أمير الأحلام ليقول لك الشيء نفسه»

## ٦ - المواجهة

برغم أن توني كانت تفهم الموقف جيداً ويرغم الفراش الوثير الذي كانت  
ترقد فيه نامت نوماً متقطعاً، واستيقظت وارتدت نيلها مبكرة في الصباح التالي،  
ووجدت أمها تعد طعام الفطور

«صباح الخير يا عزيزتي؛ حسب أنكم سهرتم الليلة الفائتة وستنامون طويلاً هذا  
الصباح، وسحت لشيري وبالي بالتأخير حتى العاشرة لأنها بذلتنا جهداً كبيراً  
مساء أمس، هل تأكلين يا توني؟ يمكننا تناول فطورنا في المطبخ، وسأضع  
لبنيامين فطوره على صينية فهو يحب الانتظار مبكراً»  
كانت تشرثر في سعادة وتتحرك في المطبخ الحديث كأنها اعتادته طوال حياتها.  
وواصلت:

«لن يفطر سوانا، فالسيد لورنس يعني بنفسه في جناحه الخاص»

وأخذت ثلاث بيضات من التلاجة وشغلت توني بتنظيم الأطباق وأدوات  
المائدة التي وضعتها أمها، وقالت:

«أمضيت الاجازة كسائق في النقل العام فأنت لم ترتاحي أبداً ...»

وقالت السيدة وارين وهي تقطع شرائح الخبز:

«أنتي أحب ذلك؛ أحبه حقاً؛ انه حلم أن أوجد في مطبخ كهذا بعد تلك السنوات  
الطويلة»

ورفعت توني حامل التوست وهي تقول:

«ما قولك في أن تقيم هنا بصفة دائمة؟»



لم يكن ثمة فائدة من الجدل مع السيدة وارين وغيرت توني الموضوع  
قائلة:

«أريد أن أجعل السيد بنيامين يعرف أنني اتخذت قرارى. هل تريد مانعاً في  
أن أكتب اليه ورقة أضعها على مائدة فطوره؟»

وبينا كانت السيدة وارين تصنع التوست وتسلق البيض، ذهبت توني  
إلى غرفة المكتب لتبحث عن قلم وورق. كانت الغرفة كما تركتها الليلة الفائتة  
فيها آثار رائحة السيكارا، والكؤوس لا تزال في أماكنها، وامتصت للمنظر خاصة  
كيف صار حال المساند وأصلحتها ثم التفتت فوجدت ورق الكتابة على  
المكتب، وكتبت:

«عمى العزيز بنيامين إذا كنت لا تزال تريدنى، فإن اجابتي هي: نعم! بالحسب  
والعرفان - أنطونيا»

وبللت المطروف بلسانها ثم أغلقتها بإحكام. وتهدت، وسارت إلى الباب وهي  
تلقى نظرة أخرى إلى الأريكة.

وعند الحادية عشرة أخذت توني وجهتها على الممر الرئيسي في المراج  
الطويل ومن خلال الفتحة المقوسة العالية المصنوعة من خشب الزان في نهايته.  
ورأت الكوخ عند حافة الحديقة الخلفية. يكاد يختفي وسط أشجار الفاكهة، وعلى  
واجهته قتال التين الصغير وخرجت أن للقائها تقول:

«أنا سعيدة للغاية بقدمك، أعددت القهوة، أما هوميتيك فذهب إلى الأسطول  
وسيحاول الحضور لشرب القهوة معنا.»

ودخلت توني إلى غرفة الجلوس الصغيرة التي تعبق يعطر بعض الزهور  
الزاهية وتوهج فيها نار المدفأة. وأخذت فنجان القهوة ونظرت حولها نظرة إعجاب  
وقالت:

«جميل ومريح للغاية»

وجلست أن على الجانب الآخر للمدفأة ترتدي تنورة من التويد وكنتز بيضاء  
صنعت بالتطريز اليدوي. وبدت رائعة بملامحها الرقيقة وعينيها الواسعتين.

وخطر لتوني من جديد ما إذا كان بين أن وغراي لورنس أية علاقة.  
فليس في أن ما يذكره بميدج ولا ما يجعله يعاملها بتلك المראה المكبوتة.  
يستطيع معها أن يبدأ من جديد إذا ما كان يفكر في الزواج من جديد.  
وضحكت أن. وقالت:

«مريح جداً، تشعر أنه ضيق جداً في بعض الأحيان، ويشعر اخي المسكين أنه  
محاصر هنا. ولكننا نسير أمورنا. وألحق أن السيد وارين كان كريماً جداً معنا فقد  
أمر بتوسيع المطبخ وجعله كاملاً. إنه مطبخ فاخر أرجو أن تشاهده قبل أن  
تصرفي والسيد وارين رجل رائع»  
«أتفق معك تماماً...»

قالت توني ذلك وهي تتذكر كيف عبر عن ابتهاجه لقرارها. كانت قد  
صعدت إلى غرفته بناء على طلبه، ووجدته جالساً في المزير يردائه الأسود المزين  
بجديلة ذهبية. وبشعره الأبيض ولحيته الأنيفة... ويبدو أكثر مهابة. ولم يكن زيه  
أو مظهره ليؤثرا على تعبيره الطبيعي بالفرح والسرور. فقد أخذ يديها بين يديه  
قائلاً:

«إنني مسرور للغاية يا أنطونيا. وينبغي أن تتأكد أنك لن تندمي على هذا  
القرار.»

كانت توني قد ذكرت له أن أن ذهبتا لشرب معها القهوة واستأذنته في  
زيارتها، وربت على وجنتها قائلاً:

«أريدك أن تفعل كل ما يروق لك يا طفلي العزيزة! وعندما تتعودين الوضع  
الجديد قد تهدين أن لك شيئاً خاصاً تهتمين به أو هواية خاصة تعبرين بها عن  
مواهبك وإذا ذاك أرجو أن تخبريني فسأكون في منتهى السعادة لأوفر لك  
ما تريد.»

وأضاف وهو يبتسم:

«طالما أنك لا تطلين أئمن ماسة في العالم...»

وعلفت توني في جدية:



«أخشى أن تكون مصمماً على تدليلي فقد تعودت أن أعمل من أجل لقمتي كما تعلم.»

وأجابها بنيامين:

«إذا كنت تريد من العمل فليست هناك مشكلة... مارأيتك في أن تتعلمي كل شيء عن العمل الذي تشتغل به؟»

كانت تعرف أن شركة وارينز من أشهر شركات المجوهرات في بريطانيا وقد شاهدت بنفسها معرض المجوهرات في بوتد ستريت ولم تكن تصدق أنه معرض عليها العمل في مؤسسته، وقالت:

«تعني أنني أستطيع أن أذهب إلى لندن؟ وأنت سوف تجد لي عملاً هناك؟»

وانفجرت أسارير بنيامين وقال:

«أذكر أنك كنت تبحثين عن عمل؟»

«نعم... ولكن ذلك كان شيئاً مختلفاً...»

وابتسم وقال:

«لن تكون الآتية أنطونيا بعد الآن عبيدة للآلة الكاتبة، أنه ليسعدني أن تعزقي كل شيء عن الأحجار الكريمة، عن الأشكال والتصاميم وكل شيء عن الحرفة التي تصنع أدوات الجمال، هل يتناسب ذلك؟»

ولبت عينا توني، وقالت:

«شيء لا يكاد يصدق، إذا كنت تعتقد أنني أقدر على تعلم ذلك؟»

«تستطيعين يا أنطونيا.»

ونظرت توني إلى أن وقالت:

«نعم، بنيامين رجل عظيم، إنه طيب، كريم، كشيخويات الكاتب ديكنز التي تعيش لتجلب السعادة للآخرين.»

وجلس أن صامتة لحظة ضحكتهما بعدما توني في شيء من الاضطراب وقالت:

«اسأل هل من الخير أن يحصل الإنسان على كل ما يريته؟»

وعلمت أن بابتسام:

«هذه نقطة لا تحتمل الناشئة إذا ما حانت الفرصة لأي إنسان... ولكن بعض الناس تفسدهم النعمة بينما آخرون لا يتغيرون مهما جاءهم الفنى والثراء، هناك صنفان من الناس القادرون الذين يعطون والضعفاء الذين يأخذون، والقادر شخص غير أنني أما الضعيف الذي يأخذ فقد لا يشبع أبداً فكلما أعطيته طالب بالمزيد.»

فواصلت تقول:

«أخشى أن أكون أنفلسف، لو كان غراي موجوداً لغضب مني، فهو يتهمني بأنني أخذ كل شيء مأخذ الجد... يا لغراي المسكين.»

وأخذت توني ترشف قهوتها في صمت. كل شخص يبدي الاشفاق على غراي ويلتمس له الأعذار ماعداها؛ لم تكن ترى أنه يستحق أي إشفاق ولم يكن له عذر فيما يديه نحوها من كراهية.

وقالت أن:

«لا تجعل غراي يعكر عليك صفوك أنه يصبح شخصاً غير محتمل إذا أراد ذلك، وأحسنت أنه كان يتعمد مضايقتك الليلة الماضية.»

«أنه يكرهني لأنني شبيهة زوجته.»

وحاولت أن تخفف من وقع العبارة الكثيرة فقالت:

«إنك تلاحظين شعوره عندما يراني في المنزل لاهد أنه كان يحب زوجته كثيراً.»

كانت أن تنظر إليها في استغراب، وقالت:

«اعتقد أنه كان يحبها بالفعل...»

وتحدثت أن عن القرية المجاورة وعن سوق المدينة الصغير على بعد خمسة أميال حيث تشتري ما يلزمها وحيث تقع المدرسة التي تعمل بها.

وقالت توني:

«بدأت أحس كأنني في بيتي فلقد نشأت في قرية وأعتقد أن سائر القرى تشابه.»

وسأجد ما يشغلني.»



ولم تكذب تقول ذلك حتى ساورها الشك فيما قالت، كان لحياتها حتى الآن هدف تسعى الى تحقيقه، فالامتحانات المدرسية والتدريب على أعمال السكرتارية وفيها بعد عملها في لندن الذي كان من الممكن أن يوصلها الى وظيفة أكثر مسؤولية؟ فهل يكفي الآن أن تعيش في فراغ؟ كان يوسعها أن تشارك أمها بعض الأعمال ولكن من الصعب أن تتنازل أمها عن مسؤوليتها في إدارة المنزل. وكان هناك عرض بنيامين بأن تتعلم ما يرتبط بتجارة الماس ولكنها لم تكن تستطيع أن تترك حياتها كلها لهذا العمل.

ونظرت الى الساعة الموضوعة على رف المدفأة وقالت:

«لا بد أن أنصرف الآن والأ تأخرت على الغداء».

وعلمت أن :

«سوف يشعر دومينيك بالأسف إذا لم يرك».

ونظرت من النافذة وقالت :

«هل لاحظت أن المطر بدأ يهطل من جديد؟ هل أحضرت معك شيئاً يقيك المطر؟

حسناً، خلني معطفي فلن أحتاج اليه وسوف يحضره دومينيك فيما بعد»

ورجعت ومعها معطف أحمر له غطاء واق للرأس ليست توتني شاكرة

عنايتها بها.

ولاحظت أنها تلبس صندلاً لا يناسب المطر فقالت:

«انتظري دقيقة! أحضر لك حذاء المطر من المطبخ. انه غير أنيق لكنه يفيد جداً

في هذه الظروف».

وأحكمت توتني أزرار المعطف، ولبست غطاء الرأس ونظرت في المرأة

الموضوعة فوق خزانة في ركن من الغرفة وسمعت أن تبهت في مخزن خلف

الكوخ فقالت:

«لا تشغلي نفسك إذا كنت لا تهجدين...»

وانفتح باب الكوخ الذي يؤدي الى غرفة الجلوس مباشرة في تلك اللحظة،

وقبل أن تستدير توتني لتستطلع الأمر وجدت نفسها تقع في عنق من الخلف

بين ذراعين صلبتين، وسمعت صوت رجل يقول:

«عزيزتي كنت أعد الدقائق لأخرج وكنت أخشى ألا أستطيع...»

كانت لهجة طجة عاشق نفذ صبره، ووقعت في حيلة من أمرها... ذهب

دومينيك الى أبعد مما يحتمل ولا بد أن تقول له ذلك.

واستدارت بين الذراعين اللتين تمسكان بها ورأت فيما متعشاً على مسافة

قريبة يقترب منها. ولكنه تنهف الى الخلف وسقطت الذراعان اللتان تمسكان بها

ووجدت نفسها تكدح في شخص غريب تماماً. رجل أشقر البشرة والشعر له وجه

تحيل يدل على أنه شخص مثقف.

والتفت توتني ووجدت أن تلف عند الباب وببداها حذاء المطر واتسعت

عينها في دهشة إذ شهدت على الأقل جزءاً مما كان يحدث، وتبادلت مع الرجل

الأشقر نظرة تدل على خيبة الأمل. وقال:

«هل كان يوسعني أن افطن لوجود التنتين لها المعطف وغطاء الرأس الأحمر

نفسهما؟»

ونظر الى توتني، وأضاف:

«أقدم اعتذارى».

والجهد نحو النافذة ووقف مديراً ظهره لها ووضع يديه في جيبيه. ألفت أن

بالحذاء وتحملت مسؤولية الموقف واتجهت الى الرجل الواقف عند النافذة،

ووضعت يدها على ذراعه وقالت:

«توتني، هذا كيث هيسلي معلم الفنون في مدرستي. وهذه توتني، ابنة أخ

السيد وارين يا كيث حدثتك عنها من قبل».

وصافح كيث توتني، وهز كتفيه قائلاً:

«تسببت لك في الحرج يا أن... خرجت عن شعوري... إنها غلطتي بالطبع».

وألقى بنفسه في كاية على كرسي قرب المدفأة، وقالت أن في هدوء:

«لا تجزع يا كيث، ان توتني واحدة منا».

والتفتت الى توتني وقد اختارت كليتها بمثابة:



«إذا طلبت اليك ألا تذكرني شيئاً على الإطلاق لأي شخص عما وقع وعين رؤيتك كيث هنا فهل توافقين؟»

«بالطبع... بدون أن تطلبني الى ذلك.»

وارتفع رأس كيث يقول:

«لا أكاد أصدق.»

ولبت توني حذاء المطر وقالت:

«أشكرك على القهوة يا أن وعلى المصطف والحذاء... لا تتكلمي مشقة صحتني الى الباب.»

وابتسمت لها وبدأت تخوض في ماء المطر خارج الكوخ، لم تكن لديها أي فكرة عن العلاقة بين أن و كيث بل تأكدت أن العلاقة بين أن وغراي لا تزيد عن كونها صداقة وارتاحت الى ذلك الحاضر فأن من وجهة نظرها لطيفة جداً ولا يستحقها غراي.

وهولت تصعد الدرجات القليلة المؤدية الى المنزل وهي تشعر بالارتياح قال بنيامين وهو يدفع بعجلة السكائر الذهبية الخاصة به الى غراي:

«هنا أننا جميعاً هنا من المناسب أن نضع خطة للأيام القليلة المقبلة.»

كان الأربعة قد انتهوا من تناول الغداء، وحضر غراي من جناحه ليشتركهم بدعوة من بنيامين، وقالت السيدة وارين لتوني:

«عندما ذهبت لدعوتك، كان علي وشك أن افتح علبه من علب الطعام المحفوظ لا أستطيع أن أقهر لماذا يصر على أن يبقى بمفرده؟»

وبدا أن توني كانت تفهم لماذا؟ كانت تعتقد أنه يتفادى رؤيتها بعد ما حدث الليلة السابقة، ولكنها ابتسمت وقالت:

«ربما كان لديه عمل يريد انجازه.»

وأستد غراي ظهره الى الكرسي حيث يجلس وهو يبحث بالسيكار بين أصابعه، وقال:

«أعزم العودة الى لندن في وقت مبكر من صباح الغد.»

ودعش بنيامين، وقال:

«وما الذي يدعو لهذه العجلة؟ والمصنع مغلق!»

وهز غراي رأسه يقول:

«سيكون جو هناك، إنه حريص على أن ينجز المطلوب منا لمعرض كارين لايز، إنك تعرف مدى حرص جو على اتقان العمل، ويكره أن يجد نفسه في ضيق من الوقت، وينبغي أن أكون موجوداً لانجاز بعض الأعمال، وقد وعدت كذلك أن أقابل مارشا غداً بخصوص مجموعة باريس، وقد اتصلت بي الليلة الماضية.»

وأوماً بنيامين قائلاً:

«ربما تكون على صواب، ولكن بالنسبة الى فاتني أوتر الكسل بقية الأسبوع لأستمتع بفن الطهو الذي تقدمه صديقتي مارغريت.»

وأشرقت ابتسامته نحو السيدة وارين التي بادلتها الابتسام في سعادة كاملة، وقال بنيامين:

«إذن فسنبقى هنا ثلاثة، وتبقى كذلك مشكلة الشقة في هورنسي.»

وألقت الى أنطونيا يقول:

«أعتقد أن أفضل شيء بأنطونيا إذا كنت توافقين أن تسافري مع غراي الى لندن غداً، وبوسعه أن يوصلك الى الشقة، وتستطيعين أن تعلمي الترتيبات مع صاحبة المسكن، وتحزمي أغراضكم ما رأيك في هذه الفكرة؟»

ونظرت توني الى أمها، وقالت السيدة وارين بسرعة:

«إنك لا تحتاجينني يا عزيزتي! فسيكون يوسعك أن تتفقي مع أحد الجاهلين ليحضر كل شيء الى هنا، وليس عندنا أناث كثير، فهناك آلة التطريز وآلة الخياطة وحاجياتنا الشخصية وستكون السيدة ثلاث مسرورة عندما تعطينها محتويات خزانة الطعام.»

وأضاف بنيامين:

«وسيكون غراي قريباً منك إذا ما أحتجت الى أية مساعدة.»



وابتسم لكليهما وقال:

«اتفلنا؟»

وقالت توني:

«نعم.»

وقتم غراي كأنه تلقى أمراً لا يسهه قائلاً:

«كما ترى يا سيدي.»

لم يكن غراي يعترض على أي رغبة لبنيامين، وخطر لتوني أن كليهما واقع في فخ، سوف يكون عليهما أن يسافرا معا سواء أرادا أم لم يريدوا ولم يكن أمامهما من سبيل آخر.

ونحرك غراي في كرسيه إلى الخلف قائلاً:

«أقترح أن نتحرك في الصباح الباكر. هل تناسبك الثامنة صباحاً؟»

وأجاب توني:

«مناسبة تماماً.»

كان غريباً أن يجلس اثنان على مائدة الطعام بدون أن تتقابل عيناها بطريقة مباشرة، ولم يكن أحدهما ينظر إلى الآخر الآن.

ونفض غراي وقال:

«ربما تسمحون لي قلدي بعض الرسائل أريد أكتبها.»

وقال له بنيامين:

«ولكنك ستعشى معنا هذا المساء؟»

«أشكرك، ولكنني مدعولتي أسرة يترون ولم أستطع الاعتذار لكنتي سأراك قبل أن أرحل في الصباح يا سيدي.»

وانحنى بالتحية وخرج.

وتنهذ بنيامين وقال:

«كان له ولد... ميدج أصدقاء كثيرون في المنطقة، وغراي مطلوب دائماً ورغم أنه ضيق وقته للمجاملات الاجتماعية، وعقب العمل كثير عليه.»

والفتت إلى السيدة وارين بابتسامة وقال:

«ستحب لكما لقاء مع الناس الطيبين الذين يعيشون هنا وربما أقمنا حفلاً صغيراً في إحدى الأمسيات عندما تعود أدا من المستشفى وتشتأف عملها. إنني أفتي تقديم أسرتي الجديدة لأصدقائنا.»

وعلفت السيدة وارين:

«أشكرك يا بنيامين... سيكون هذا شيئاً سعيداً.»

كانت أمسية هادئة لم يخرج فيها غراي من جناحه وترك توني أمها تستريح بعد الغداء بينما ذهبت لتستطلع المطبخ بمعداته الحديثة وأدواته الكهربائية، كان يحوي كل شيء يدخل السرور على قلب الطاهي الشغوف بعمله وييسر العمل في الطهي، خلاطات، عضارات، مناخل طواحين للمكسرات وللين، ماكينات لتقشير الخضار... كان مليئاً بالمعدات التي جعلت رأس توني يدور ولكنه كان بالضبط ما تهواه أمها بنزعتها المتعطشة إلى الأشياء العملية.

وجلس الثلاثة فيما بعد في وقت متأخر من المساء لشرب الشاي حول المدفأة في غرفة المكتب ثم ذهبت السيدة وارين لتعد وجبة العشاء. كان بنيامين يتحين هذه الفرصة ليتحدث إلى توني حول المواد الخام التي تستخدم في صناعة الأحجار الكريمة، وقال:

«أنتي أعشق الأحجار الكريمة وظل جمالها وغموضها يسحرني منذ الطفولة. قاماً كما سحراخي، جدك نوع آخر من الرجال... كان يظن أن عملنا ليس سوى عمل تجاري ولذلك رفض المشاركة فيه، كان رومانتيكياً حقيقياً، أما بالنسبة إلي فإنني أجد الجمال والتأعيرية في صناعة أشياء جميلة من الصخور والمعادن التي قد تبدو لأول وهلة في صورة لا توحي بالجمال، وهي التي أنتجها باطن الأرض خلال ملايين السنين.»

وتحدث عن الياقوت والزمرد والأوبال وعن أحجار أخرى لم تسمع بها توني من قبل، وعن الأماكن النائية من العالم حيث توجد تلك الأحجار، وقص عليها السلسلة الطويلة من العمليات التي تؤدي في النهاية إلى الحلية المنتجة، الديوبس



الفاخر أو الخاتم أو العقد، وعن اختيار الصخور بواسطة الخبراء الذين يعتمد معاشهم على خبرتهم في إصدار الأحكام وعلى قدرتهم على فرز الأحجار وتصنيفها حتى يصل الحجر الكريم في النهاية إلى مهارة القاطع وقدرته على التشكيل، وقال:

«وعندما تدركين العمليات التي يمر بها كل حجر لئلا في طريقه ليصبح الحجر المتألق، اللامع الذي تربته في قطعة المجوهرات، وعندما تأخذين في الاعتبار الجهد الشخصي الذي يعطى له بواسطة رجال كرسوا حياتهم للسيطرة على المهارة اللازمة للتمييز والتشكيل، يمكنك أن تقدرى أن مجوهرات الدرجة الأولى ليست غالبية الثمن كما يتصور البعض.

وجلس توني قرب وجه الكتلة الخشبية وتصفيها باهتمام بالغ إلى حديث بنيامين الذي استولى على مشاعرها، وأصحت بأنها تنتمي في شكل ما إلى الموضوعات المثيرة التي تحدث عنها بنيامين وهو يقول:

«ولكن تاج الأحجار الكريمة من وجهة نظري هو الماس. إنك لا تخيلين مدى السحر الذي فيه. تلك الحصى الصغيرة التي وطأها أقدام البشر قروناً قبل أن يعرف الإنسان قدر الجمال الذي يخفي فيها، وقبل أن يتعلم كيف يقطعها ويصقلها. إن جمال الماسة يا أنطونيا في النار التي بداخلها كما يحلو لنا أن نطلق عليها ذلك الوميض المتألق، الذي يبدو كقوس قزح عندما يتعكس عليها الضوء. إن مصدر العجب الدائم لي أن حجراً خاماً يمكن أن يحمل مثل هذا الشيء الباهر في داخله بانتظار أن يكشف عنه إنسان، تعالى وانظري إلى هذه» وفتح أحد الأدراج وضغط زراً كشف عن مكان صغير مستقل وقال:

«مخابئي السرية أكثر أماناً من الخزنة التي تعلن عن نفسها» وأخرج حبة صغيرة وفتحها لتكشف عن حصة صغيرة تيل إلى البياض يغلفها غشاء رقيق وقال:

«هل سمعت عن الماس الخام؟»

«أبسم ووضع الحصة في يد توني، وواصل:

«هذه هي!»

وأدارت الحصة بين السبابة والابهام في رقة وفي نقطة منها كان الغشاء الرقيق قد تأكل، وأخذت هذه النقطة تلعب كأنها الضوء حينما داخل الحجر.

وقال بنيامين:

«هذه الماسة من نوع ممتاز وتكاد تكون نقية تماماً أشتريتها منذ زمن بعيد كهدية لحفيدتي في عيد ميلاد طفلها الأول. وكنت أعتقد نفسي أنه سيكون لي حفيد عظيم أو حفيذة تحمل مسؤولية الحفاظ على تجارة الأسرة يوماً ما، ولكن... لم يتحقق...»

وتنهت لي عني وقال:

«وهكذا ظل هنا منذ ذلك الوقت ينتظر أن يفرج عن جماله، وقد تقولين أنني رجل عجوز خيالي...»

وهزت توني رأسها إذ تأثرت بقصته وهو يعيد الماسة بإعزاز إلى غيبتها.

وواصل يقول:

«أحياناً أفكر في ملايين السنين التي عملت الطبيعة فيها عملها في الصخور لتعطينا في النهاية حجراً كريماً مثل هذا...»

ومضى في تأمله:

«الاستمرار... الطريقة التي نقضي بها الحياة، نحدد نفسها باستمرار ويحدث الشيء نفسه في الأسرة، ويمكن للإنسان أن يتخيل كل تلك الدهور من الزمن، والتخيل متعة والماس الذي يصنعه الإنسان لا يمكن أن يصل إلى مرتبة تجعل منه بديلاً مهما كان جميلاً.»

وسألته توني:

«ولكنك لا تستطيع أن تصنع ماساً! أفصده ماساً طبعياً!»

«من الممكن عمل عينات صغيرة، نعم، وتصنع بالطريقة نفسها التي تصنعها بها الطبيعة من الكربون النقي مع الامراع بالعملية مليون مرة. ومع ذلك فهناك عقبة تقف في طريق صنع الماس من أي حجم، وهذه العقبة هي الحرارة الشديدة



الطلوبة والضغط... هل اضجرك الحديث يا أنطونيا؟

«لا، على الإطلاق، أرجوك أن تستمر»

وأوما وقد شعر بالرضى، وقال:

«كنت سأحدثك عن الماس الصناعي الذي يعتبر تقليداً للطبيعة، فقد تجمع الكيمايون في صنع أحجار صناعية تشبه الماس الطبيعي في صلابة بل وتزيد عليه أحياناً في اللعنان وفي التار... وهي تشابه إلى حد ما تلك المواد الحديثة التي تستخدم في صنع الثياب هذه الأيام كالصوف الذي لم يعرف الغنم والحريز الذي أنتجته مغازل آلية ضخمة ولم يعرف دودة القز»

وضحك وضحكت توني معه وقد زاد تقديرها للرجل العجوز وعرفت بعض الشيء عن صناعة الماس التي توارثتها الأسرة عبر تلك السنين.

ومضى بنيامين يقول:

«إن بعض الناس سعداء فعلاً بتلك المستحدثات، بل لا يمكن تفاديها أحياناً نتيجة للاستهلاك الكبير للمنتجات الطبيعية، ولكن لا يوجد بديل للماس الحقيقي»

واستقرت توني:

«وهل تستخدم وارينز الماس الصناعي؟»

«هو بنيامين رأسه في ابتسامة ضئيلة:

«إننا في وارينز نلتزم بتقاليد خاصة لأننا حريصون على سمعتنا في التعامل بما هو أصل ونادر، والتدرة من العوامل التي تكسب الماس قيمته، والواقع أن أمور الماس تخضع للكثير من القيود والوارد منه ليس وفيراً، وأحياناً تقوم بعمل تسخ من بعض القطع لعلنا»

وتهد قائلاً:

«ليس تفكيراً ناصحاً أن يحفظ الناس الماس الأصيل في خزانات البنوك لدواعي الأمن ويكتفون بلبس الماس التقليد»

وجلس عند ذاك في كرسيه الجلدي الوثير صامتاً وضو الموقد يتوهج منعكساً

على السعرة والمنظار المثبت في شريط واللحمة البيضاء الأنيقة، وتعجبت توني من جديد كيف أصبح هذا الرجل الذي عرفته منذ أسابيع قليلة فقط يشعر نحوها كأنها فرد من أسرته، ومالت عليه في انفعال تقول:

«أشكرك كثيراً إذ أعطيتني هذه المعلومات»

«سأكون في منتهى السعادة لو توفرت لديك الاهتمام لتقومي بأي دور تشيطن في إدارة عملنا»

«أوه... لا أعتقد أنني سأكون على هذا المستوى في أي...»

ورفع يده ليستعها من اكمال الكلام وقال:

«إن لديك الذكاء يا عزيزتي وأمامك فسحة من الوقت لتتعلمي وسوف أعلمك كل ما أستطيع، وسوف يعمل غراي كذلك على أن تكون مساعدتك لنا مفيدة بكل السبل»

وبدا على توني بعض التشكك، ولكن بنيامين هز رأسه وقال بطريقة مبهمة:

«تعلم غراي أن يميز الأصالة حينها يجدها»

كان ذلك اطراء من بنيامين لها شكرته عليه ولكن لم يكن لذلك علاقة بالتهامات غراي نحوها سواء الآن أو في المستقبل، كان الموقف بينها وبين غراي يشبه إلى حد ما الماسة الصناعية التي تحدث عنها بنيامين، هكذا ظنت وهي تبسم في قرارة نفسها.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة في تلك الأمسية عندما جاء دونييك ليأخذ معطف أن، وكان بنيامين قد صعد إلى الفراش منذ فترة بعد أن أغلق الباب الكبير وقال:

«إن غراي معه مفتاح للباب الجانبي، اسعدت مساء يا عزيزتي، ورحلة سائلة صباح الغد، سوف يطمئن غراي إلى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة اليك»

قالها وهو يبسم ابتسامة الحيرة، وصعدت أمها كذلك وجلست توني على



الأريكة المغطاة بالقماش القطني المزخرف الى جوار نار المدفأة الدافئة في الردهة تستغرق في كتاب أعطاها إياه بنيامين عن تجارة الأحجار الكريمة، وكانت قد أتدبجت في الموضوع بدرجة جعلتها تفاجأ عندما سمعت نقرأ على الباب وصاحت: «من الطارق؟»

وجاءت الاجابة من الخارج:

«أنا... دومينيك!»

وترددت لحظة ثم فتحت الباب، وقال:

«تحياتي يا عزيزتي... آسف لمجيئي متأخراً، كنت في احتفال... لمشياب الفلاحين كما تعرفين...»

ونظرت توني اليه في شك وخشيت أن يصيبها شر منه وخاصة اذا لم يكن ضاحياً وفضلت حرصاً على أمنها أن تعامله في برود وقالت:

«ماذا تريد يا دومينيك؟»

وبدت عليه الحيرة ثم ابتسم وقال:

«معطف أن، طلبت مني أن أحضره.»

واختلس النظر الى الردهة، وقال:

«أين الباقون؟»

«ذهبوا... إنتظر دقيقة، سأحضر لك المعطف.»

لم تكن تستطيع اغلاق الباب في وجهه، وعادت مسرعة معها المعطف والخذاء ووجدت دومينيك يقف الى جوار المدفأة يدعك يديه معاً، وكان قد أغلق الباب الخارجي، وقال:

«الجو شديد البرودة في الخارج ودافئ هنا في الداخل.»

ومدت يدها اليه بالمعطف قائلة:

«أشكر لي أن، وقل لها انني أسفة إذ نسيت، كان يوسعي أن أعيدها في وقت باكر بنفسي.»

ولوح بأصابعه تجاهها قائلاً:

«لا ينبغي ألا أهمل الرياضة، لهذا حضرت بنفسي، لكي يجد الطائر المحب فرصة للالتقاء بوليغته، كما فكرت.»

وصمتت توني فقد كان بحالة سيئة، ولكن صمتها أتاح له الفرصة ليتجراً أكثر من اللازم، وقال:

«تعرفين عن أن المسكينة وقصة حبها، انها قصة محزنة، فالثاب الذي يجيها يعمل في مدرستها، ويحيان بعضها يجنون، وللرجل زوجة... آسف يا حبيبتي!»

وقالت توني في عجل:

«أنظر يا دومينيك! ينبغي ألا نتحدث عن أن هكذا، وعد الى البيت الآن فالوقت متأخر.»

«لا... ليس متأخراً... لنجلس! ونتناقش!»

وقيل أن تدرك نيته أخذ معصمها وجلبها الى الأريكة بجانبه، وعارلت أن تنهض، ولكنه أمسك بذراعها بالحكام وقال:

«لا تذهبي يا حبيبتي! انتظري لحظة... ومحدثني الى... انت غاية في الجمال في هذا الفستان الأزرق، لا تنصايقي! أنا لست وسأنتصرف بلباقة كاملة... هذا وعد...»

أريد أن أخبر أي شخص بالخبر السعيد...»

وفكرت أنه من الأفضل أن تصبر عليه ولحسن الحظ ترك الحديث عن أن وسألته:

«أي خير سعيد تعني؟»

«أستراليا! صديقي ذاهب اليها في الأسير المقل وهذا ما كنا نعتقل به، وطلب الي أن ألحق به بعد فترة، انها فرصة كبيرة بعد أن أطمعن على أن وعند ذاك أسافر.»

«حسناً، سوف تخبرني بتفاصيلات ذلك فيما بعد فالوقت متأخر الآن.»

ولكن دومينيك كان مصراً على الكلام، وظل لنصف ساعة يحكي عن أستراليا وعن مزرعة الماشية التي تقع على مسافة ميل من أقرب مدينة، وعن المسكن وما حوله من أرض والثراء الذي يمكن تحقيقه والطرق الجديدة التي



بينوتها ثم قال:

«من السهل أن تشتري بيتاً خاصاً وسيارة انه بلد صحي يلائم تربية الأطفال كذلك.»

وأعلنت ساعة الحائط منتصف الليل، ووثبت توني وقالت:

«هالاه! لم أكن أعرف أن الوقت تأخر الى هذا الحد، ينبغي أن تنصرف يا دومينيك، هيا انهض!»

ومدت يدها تساعد على أن ينهض من الأريكة الغائرة ولكن عندما وقف لم يتركها وأمسك يدها بإحكام ونظر في وجهها قائلاً:

«هالك يا توني جميلة وعاطفية ورائعة، وكل ما يمتناه المرة فبك، ما رأيك في أن نذهب سوياً الى تلك الأراضي الغنية؟ المرة يحتاج هناك الى زوجة وسوف نسعد سوياً ونجد فرصة للعمل، إنني أعني ما أقول.»

«أنا واثقة من كلامك يا دومينيك.»

«وهل تقبلين اقتراحي؟»

«سوف أفكر...»

«إنك حبيبة... أعطني قبلة بتمنيات الحظ وبمناسبة عيد الميلاد!»

وجذبها اليه في رقة، وقال:

«عذبة!»

وحاول أن يقرب وجهه ثانية ولكنها ابتعدت عنه قائلة:

«لا يا دومينيك يكفي!»

وحاصرت لتجذب نفسها منه وهو يحاول أن يمسك بها، وضجكا وكأنهما في من المراهقة وكانا يتجاذبان ويتدافعان عندما دخل غراي الى الردهة من مكان ما ووقف يرقبهما، وقال في اقتضاب:

«أسف اذ أسد المرح ولكن الوقت قد حان لينفض هذا الاحتفال اذا كنا سنخرج في الصباح الباكر غداً يا أنطونيا»

كان دومينيك قد ترك ذراعيه يسقطان عندما سمع صوت غراي ووقف

الآن يرب ما يحدث في شيء من الغباء وعندما أفاق من النعشة أحس برغبة في أن يؤكد ذاته فقال:

«ما شأنك وهذا نحن لسنا بحاجة الى أن نطلب منك الاذن بالسهر؟»

ونظر في لحد الى الوجه الصلب الذي يواجهه، ونظر اليه غراي في احتقار قائلاً:

«الأفضل لك أن تنصرف وإلا ألقيت بك خارجاً.»

وتكورت قبضتها دومينيك ولكنه لم يكن ليثير شجاراً، هكذا تصورت توني، وكان دومينيك يتنفس بصوت مسموع وقد إحم وجهه وبدا شعره أشعث على جبهته، ووقف في غير اكتراث وبداء في جيبه وبدا شيء من التهديد يقرن بذلك الصمت، وأحست توني بالحرق يسري في عروقها وخطت الى الأمام تقول:

«الوقت متأخر يا دومينيك وسوف تفلق عليك أن، أشكر لك لأنك قصصت علي أخبار أستراليا، وأرى أن تذهب الآن، خذ المعطف، ها هو! أسعدت مساء يا دومينيك!»

وزد قائلاً:

«أسعدت مساء»

وخرج وأغلق الباب خلفه في تظاهر بالشجاعة.

وانتهجت توني الى الأريكة وهي تغلي من الغضب ازاء ما حدث، والتقطت كتابها وانتهجت الى الدرج، لم تكن تنوي أن تحتك بغراي في حالته الانفعالية المراهنة وقد أحست بأن معه جانباً من الحق.

وجاءها صوته من الخلف يقول:

«لم يكن ضاحياً لعلك تعرفين ذلك!»

والتفت وقد أحست بأنه يحاول أن يبرر سلوكه وهو ما لم تعهده فيه من قبل لتقول في برود:

«ألسنت تبالغ؟ ربما التهب قليلاً مع شباب الفلاحين، وليس ذلك سبباً يسمح لك



بأن تهدد بالقائه في الخارج.»

واقترب منها يقول:

«لم أكن أهدده لذلك ولكن لأنه كان يسك بك بين ذراعيه.»

وعرفت أنه من الأفضل ألا تدخل معه في جدل ومع ذلك سمعت صوتها

يقول:

«أرجو ألا تتخيل أنك وصي علي في هذا الشأن، أستطيع أن أعني بنفسى جيداً ولم

أكن في خطر مع دومينيك فهو شاب لطيف، أصيل، صريح ورائع...»

«حقاً؟ شيء مثله»

واقترب منها يقول:

«حسنًا... إذا كنت لا تعترضين على توزيع مودتك في الأعياد فربما يكون لي أنا

أيضاً نصيب، ولكن أحذرك! فأنا لست رقيقاً مثل صديقك دومينيك ولست

لطيفاً بأي حال.»

واحتوى ذراعه خصمها وهو يقول:

«هل تريدني أن تعلمي احتجاجك؟»

كانت في قرارة نفسها تريد أن تدفع به بعيداً وأحست بأن أطرافها قدسدت

المقاومة ورفعت رأسها وتقايلت عينها في نظرة طويلة صامتة في عتمة الزهرة

الكبيرة. وأحست بموجة أثر موجة من البهجة تنبض فيها ووجدت نفسها تترنح.

وعاودها التعقل من مكان ما خارج نفسها، وأدارت رأسها بعيداً وتصلبت وقالت:

«لا، لن أقبل أن أكون مجردة... مجردة بديلة... أنه شيء مهين وجنيد»

وتجمعت فيها مشاعر الدفاع عن الذات، وتهدلت ذراعها إلى جانبه وقال:

«يا للسوء! عمّ تتحدثين؟»

وأجابته وهي تتراجع بعيداً عنه:

«إنك تعرف جيداً ما أحدث عنه، إنك تريدني لأنني شبيهة زوجتك ولأنك

تستطيع أن تقنع نفسك بأنك مازلت تضحها بين ذراعيك. كنت أعجبها للدرجة

كبيرة، وتريدني أن أشغل مكانها وتكرهني طوال الوقت لأنني لست هي.»

ونظرت إلى وجهه وعندما رأت ملامحه خاتماً قلبها فجأة وقال في هدوء كامل:

«هل هذا هو ما تظنينه.»

«لقد جعلته واضحاً تماماً... انتي أسفة إذا كنت قد واجهتك بالحقيقة، ولكن كان

لا بد أن أقولها.»

كان لا يزال ينظر إليها في دهشة كاملة، وخطر لها أنها أتته من مكنته. وكان

من حقها أن تزهر بالانتصار، ولكنها بدلاً من ذلك أحست بأنها صغيرة وبأنها

مذنبية، وقالت من جديد:

«أسفة يا غراي.»

والتفت لتتصعد الدرج، ولم يحاول أن يستوقفها.



وصلت اليه بالخداع ولقد قال انها انتهازية وحدثت نفسها بأنه رجل متوحش وهي تشير أمامه في صباح ذلك اليوم الشديد البرودة من شهر ديسمبر/كانون الأول.

وكانت الرحلة الى لندن أمراً مقلقاً طفت خلالها ذكرى الانفجار العاطفي الذي حدث بينها بالأمس كضباب لا يمكن اختراقه. وغير اتجاهات كل منها نحو الآخر تماماً. كانا يتفائلان دائماً في شجر صريح والآن انتهى الشجر ومعه الصراحة. وبدأ غراي مهذباً ومتعقلاً وسعدت توني بذلك. وأبدى نحوها من اللياقة والمجاملة مثل ما يبديه بنيامين وارين. وكان ذلك شيئاً غريباً على غراي.

وأُسندت ظهرها الى المقعد الوثير بينما أخذت سيارة غراي تحتاز الطريق ميلاً بعد ميل وأحسّت بأنها أخطأت بما قالته له الليلة السابقة بدرجة لا يمكن له أن يغفر لها. وأطلقت تنهيدة طويلة. وقال غراي مستفسراً بدون أن يحول بصره عن الطريق:

«أنت بخير؟»

وردت في أدب:

«نعم... أشكرك!»

ولم يتبادرأ أية كلمة بعد ذلك حتى توقفت السيارة أمام البيت القديم المؤلف

في هورنسي.

وأوقف غراي المحرك. وقال:

«ما الوقت الذي تحتاجينه لانتهاء كل شيء هنا؟»

ووقع منها ذلك موقع الدهشة فقد كانت تظن أنها ستأخذ وقتها وتقيم ليلة وتعود وحدها الى قصر الطرق البيضاء في اليوم التالي. وجازلت أن تتبرح له ذلك. ولكنه هز رأسه قائلاً:

«أوصاني بنيامين بك وسأفعل ذلك. هل تستطيعين أن تنجز كل شيء قبل العصر؟»

وفكرت ثم قالت:

## ٧ - الغيوم تتبدد

وقفت توني في تمام الثامنة الا دقيقة من صباح اليوم التالي تنتظر في الردهة. كان منظرها الخارجي لا يختلف عن توني وارين التي ذهبت الى قصر الطرق البيضاء منذ ثلاثة أيام. ولكنها في أعياقتها كانت تختلف بعض الشيء نسبة الى ثقتها بالنفس بالومضة الجديدة في عينيها. وسواء أرادت أو لم ترد تحولت الآنسة أنطونيا وارين الكاتبة المؤقتة على الآلة الكاتبة الى أنطونيا وارين التي تنتمي الى شركة وارينز المعروفة في بوند ستريت.

وظهر غراي من الباب المؤدي الى جناحه بعد ذلك بأربع دقائق. ونظرت اليه توني تنفحسه على ضيق منها ورأت فيه رجل الأعمال الذي كرهته دائماً بسبب غروره وتسلطه وارتكازه حول ذاته وعدم استعداد له لتحكيم النطق وقالت وهي تتظاهر بالصبر:

«صباح الخير!»

وارتفع حاجباه بعض الشيء. وقال:

«صباح الخير هل أنت مستعدة؟»

ونظرت الى ساعتها التي ضبطتها على الراديو وقالت في برود:

«ألم تقل أننا سنترك في الثامنة؟»

وزجر بكلمات ربما كانت اعتذاراً وربما لم تكن كذلك وحمل حقيبتها الصغيرة وفتح الباب الأمامي وانتظر حتى تحتاز الباب قبله وأخذت ذلك على أنه نوع من التهكم فقد كان يجعلها تشعر بالامتناع ويذكرها دائماً أنها وصلت الى ما



«نعم... أعتقد ذلك... ولكن سيكون علي أن أبحث عن حال وقد يستغرق ذلك بعض الوقت.»

«سوف أقوم بهذا عنك فلدنيا حال يعتمد عليه وبوسعك أن تخبري ربّة المنزل أن كل شيء سيتم نقله اليوم، آخر النهار أو غداً صباحاً... وعندما تكملين عملك هنا يمكنك أن تأتي الى بوند ستريت وسيكون البواب في انتظارك وقد أكون هناك بنفسى ولكن أرجو ألا يضايقك أن... تنتظري عودتي.»

وخطر لها أنه يتحمل فوق ما يطيق وهو يلتزم بذلك الأسلوب المهدب وقالت: «أرجو ألا تقلق نفسك بسببي فأنا معتادة على تحمل مثل تلك المسؤوليات وأستطيع أن أعود الى القصور البيضاء وحدي.» وقال:

«أنا لا أشك في قدرتك ولكن ليس هناك داع للسفر بالقطار وحده إذا ما دمت ذاهياً الى هناك في الوقت نفسه.» ووافقت قائلة:

«حسنًا، سأحضر الى بوند ستريت، حالاً أكمل حزم المتاع هنا وأشكرك على المشقة التي تكبدتها من اجلي.»

وخرجت من السيارة وسارت في زهو الى الباب وكان مفتوحة لحسن الحظ واستدارت لتغلقه خلفها، ولدهشتها الكبيرة رأت أن غراي خرج من السيارة واتخذ طريقه خلفها على الممر، وحدقت نحوه في استفسار قائلة:

«هل نسيت شيئاً؟»

«ربما! الأتوين أن تدعيني الى فنجان قهوة؟»

وأحسّت بالاضطراب ووجدت نفسها تهذي بكلام غير مفهوم وقالت:

«حسنًا... نعم... إذا أحببت... ظننت... كان ينبغي أن أطلب اليك ذلك... ولكنني ظننت أنك على عجل تريد أن تنصرف.»

كانت تقف عند مدخل الردهة ويدها على مفبض الباب الأمامي وكان هرغلي بعد خطوة منها أسفل الدرج ونظر اليها غراي نظرة كادت تذيب عظامها. وفتحت الباب مسافة أوسع وقالت:

«تفضل بالدخول إذا... لدينا قهوة ولدينا حليب معلب، هل يضايقك أن تشرب القهوة بالحليب المعلب؟» «كلا.»

وما كاد يدخل حتى ظهر وجه السيدة بلات على باب سكنها وقالت: «رجعت إذا يا أنسة وارين؟ سمعتك تدخلين، هل قضيت عيد ميلاد سعيداً ألم تحضر أمك بعد؟»

«مرحباً يا سيدة بلات... أمي لا تزال في غلوشستر وأنا حضرت لأحزم متاعنا و...»

وأختفت الابتسامة عن وجه السيدة بلات فجأة، وقالت: «هل ترحلان يا أنسة وارين؟»

«نعم... أخشى أن أقول ذلك، كان ينبغي أن أذكرك وأخبرك رسمياً إذ قررنا العيش مع أقاربنا في غلوشستر.»

وارتفع حاجبا السيدة بلات في اكتئاب وقالت:

«حقاً؟ إنه شيء طيب بالنسبة اليكما، جان الوقت لتنعما بالاستقرار في حياتكما! ولعلك تعرفين شروطي... فعليكما أن تدفعا ايجار شهر مقدماً وفقاً للشروطه وعلقت تونى:

«نعم، بالطبع، دفعنا الايجار الى آخر ديسمبر/كانون الاول وسأعطيك شيكاً عن الشهر المقبل.»

«لا يا أنسة وارين! أريدها نقداً ما دمت تأخذين متاعك.»

ونظرت الى غراي فيما يشبه الاعتذار ووافقت:

«أنا أرملة أخذ جانب المحرص ولا يعنى ذلك أنني لا أثق بك يا أنسة وارين ولكن...»

وتدخل غراي قائلاً:

«هات قائمة الحساب وسأدفعها لك نقداً.»

«حسنًا... هل تدفع الايجار عن الأنسة وارين؟»

«نعم...»



قلنا غراي في الاختصار وواصل:

«هيا يا توني»

ووضع يده على مرقق توني يحثها على صعود الدرج الضيق وأغلق باب الشقة خلفها واستد اليها وقال:

«إمرأة فظيعة»

واستدارت توني بعيداً بأمل ألا يكون قد لاحظ الدماء المتسكع في وجنتيها وقالت:

«الجو بارد هنا... وسأشعل الموقد»

وأشعلت عودين من الثقاب بدون جدوى وقالت:

«شيء مضحك! لا بد أن العداد لا يعمل... وضعت فيه خمسين بنساً قيل أن نرحل حتى تجد الغاز بوقرة عندما نعود»

وعلق غراي:

«أعتقد أن صاحبة البيت كانت تستغل الغاز أثناء غيابكما»

ويبحث في كيس نقودها عن قطعة من ذات الخمسة بنسات بدون جدوى.

وجاء غراي إلى الطاولة من خلفها يقول:

«اسمحي لي!»

وأخرج قطعة النقود ونلامست أيديهما للحظة ارتعدت خلالها توني، وقال:

«أنك تشعرين بالبرد! أين ذلك العداد ذو الثقب لشعل النار»

«إنه تحت حوض الغسيل في المطبخ... في أسوأ مكان»

كانت الغرفة الصغيرة لا تزال باردة، وركعت توني وفتحت خزانة تحت الحوض وحاولت عبثاً أن تجد الثقب وكانت تشعر بغراي يقف خلفها مما زاد من اضطراب يديها.

«دعيني أفعل ذلك»

وركع غراي على الأرض بجانبها، وواصل يقول:

«تزعجني»

ودفعها دفعة خفيفة إلى الجانب وأخرج قطعة النقود من حيث وضعتها، وكاد

رأسها يتلامسان وهو ينحني ليضع القطعة في الثقب وأدركت الراححة القابضة التي كانت تفوح باستمرار من شعره، وسمع صوت قطعة النقود تسقط في الصندوق، وقال:

«هكذا! ألا تعرفين أنني خير في العداوات ذات الثقب»

وجلسا القرفصاء متجاورين وضجعت توني في اضطراب قاتلة:

«ما كنت أظن أنك رأيت أحدها طوال حياتك»

«ولكنني رأيتها بالفعل... أؤكد لك... ففي السنة النهائية من دراستي في كبرج كنت أسكن في غرفة مزججة لا تختلف عن هذه كثيراً وكنت أستمع بالحياة فيها... لقد كانت سعادة»

«وسعادة»

لم تسمعه من قبل ينطق هذه الكلمة. كان في هذا الصباح شخصاً مختلفاً، كأند قرر فجأة أن يغير أسلوب التعامل معها وسرت لذلك لأنه سوف يجهل حياتها الجديدة أكثر سعادة، لو تقبلتها كما يتقبلها بنيامين.

ونفض ووضع كلتا يديه تحت مرقفها، وساعدها على النهوض على قدميها، ولم تتكأ بداء كما فعلتا من قبل، وقال:

«إنك خفيفة كالريشة والآن! جهزي القهوة وسأشعل النار لنشرب أقدامنا ونشرب القهوة»

ولم تقض لحسن دقائق حتى كانا يجلسان على جانبي الموقد وسعيا نقرأ على الباب وفتح الباب على الفور لتدخل السيدة ثلاث وهي تلهث بعدما صعدت الدرج وبدأت اليها نظرة شك وقالت في خبث:

«أرجو ألا أكون قد غاطعتكما، ها هي قائمة حساب الأنسة وارين يا سيد...»

ولم يعطها غراي الفرصة لتعرف اسمه وأخذ يعد لها النقود بالعملة الورقية ووضعها على الطاولة، وأحضرت توني دفتر الائيجار لتسجل فيه الدفع، وطوت السيدة ثلاث النقود ووضعتها بعناية في جيب فستانها الأزرق وقالت بلهجة فيها شيء من اللطف:

«ومتي لفلين الشقة يا أنسة وارين»



ونظرت توني الى غراي الذي أوما برأسه مؤكداً...

«إذا... أعتقد أنكما لا تمانعان في أن تسكن الشقة أسرة صغيرة طلبت مني أن أوفر لها السكن في أقرب فرصة وحضرا للتو من مانتستر يبحثان عن سكن وأسم الأسرة طومسون وسأرسلها لكما إذا كان ذلك مناسباً...»

كان السيد طومسون وزوجته في أوائل العقد الثالث من عمرها وكان يبدو عليها الإرهاق الشديد، وقال الشاب:

«كلانا يعمل في التعليم وسوف يبدأ عملنا هنا مع الفصل الدراسي التالي.»

وواصلت الفتاة الحديث

«إننا نقيم الآن مع بعض الأصدقاء في حي بارووتر ولكننا لا نستطيع أن نقل عليهم أكثر من ذلك، هل تخيلان السكن اليوم بالفعل؟»

ونظرت الى توني والى غراي ثم ألقت نظرة حثيث الى غرفة الجلوس الصغيرة، وقالت:

«إنها لطيفة يا دنيس الشيء نفسه الذي نريده ولكني أعتقد أن كثيراً من الاثاث لكما يا سيده...»

وأكملت لها توني:

«واريث الأثاث والسجاجيد ملك لصاحبة المنزل ولكن كل شيء آخر يخصنا، يخص أمني ويخصني، أقمنا هنا سنتين وسأترك لك الستائر إذا رغبت في ذلك، وسأخلي باقي الشقة حالاً إذا أردت أن تحضري حاجياتك.»

ونظر الزوجان الصغيران الى بعضهما، وقالت الفتاة الصغيرة في اكتئاب:

«ليس لدينا ما ننقله، حدث كل شيء فجأة وكنا نريد بالفعل أن - ننتظر بعض الوقت حتى نتزوج ولكن جاءنا عرض العمل لكلينا في المدرسة نفسها وحصلنا على رخصة الزواج، وهذا ما حدث.»

ونظر الزوج الى غراي وقال:

«انك تقلر كيف حدث ذلك؟»

وعلق غراي في سهولة:

وقالت توني:

«كنا نشرب القهوة... هل تشربان معنا؟»

وسكبت فتانين من القهوة، وشعرا بالسعادة الكاملة عندما عرضت توني ان تترك لهما الستائر والياخسات والغطاءات وسائر أدوات المطبخ وقالت:

«انكما تصنعان لي معروفاً اذا أخذا هذه الأشياء فلن نحتاج اليها ثانية.»

ونظرت الفتاة الى زوجها في شيء من القلق تقول:

«ما رأيك يا عزيزي؟»

كان من الواضح أنه يجري بعض الحسابات في ذهنه والتفت الى توني يقول:

«كم تريدان مقابل هذا؟»

وترددت وهي تضع في اعتبارها أنها لم تكن تريد أن تأخذ شيئاً على الإطلاق، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد أن تخرج كثيراً، وقالت:

«لا أريد مبلغاً كبيراً... فأنا توفران علي مشقة الحزم.»

وذكرت مبلغاً متواضعاً وأحسن الشاب بالارتياح، وقال:

«هذا مناسب تماماً.»

وقالت توني في ابتهاج:

«إذاً اتفقنا، إذعيا وربنا امركما مع السيدة بلاث وسأحزم ملبسي وأدواتي الشخصية وسأتركها عند المدخل حتى يأتي الهمال لنقلها.»

وتهللت أسارير الفتاة، وقالت:

«تصين أن بإمكاننا أن نسكن على الفور؟ إننا على استعداد لدفع إيجار شهر مقدماً.»

والتفت الى زوجها تقول:

«أليست هذه بركة من السماء؟ هيا نتكلم مع السيدة بلاث وننتق معها على الإيجار.»

وهرولا بهيطان الدرج، ونظر غراي الى توني يقول:

«لن يحتاجا الى جهد كبير فهذه المرأة العجوز لن تردد في أن تطلب إيجار شهرين



بدلاً من شهر واحد»

ونهض غراي ووضع فنجانه على الطاولة، ووقف يحدق في وجه توني، وأفافت عليه بتفحصها، وأسرع تبسطها وأحست بالفرح وكادت تلقي بذراعيها حوله لتعانقه فقد تغير عالمها فجأة... لم تكن تعرف السيد... ربما لأنها رأت أسرة طومسون فرحة سعيدة، ربما لأن غراي لم يتركها وحدها، لم تكن تعرف.

وقال غراي:

«ما زلت طفلة برغم كل شيء».

ونظر إلى ساعته وقال:

«يتبقي أن أذهب لتلا بطول انتظار مارشا سأراك قياً بعداً سوف تحضرين إلى بوند ستريت عندما تكملين عملك هناك»  
وابتسم لها وانصرف مسرعاً بدون أن ينتظر الاجابة.

لم يكن بوند ستريت قد استعاد نشاطه بعد عطلة عيد الميلاد ولم يكن أحد من هواة مشاهدة واجهات المحال يتلصقاً أمامها. فقط كان هناك رجال الأعمال يستحثون الخطى في معاطفهم التي تحميهم من الرياح الشرقية المؤذية. وبدأ الشارع مهملأً من حيث النظافة فقد أخذ عمال النظافة اليوم عطلة ولم تكن مدينة لندن في أبهى صورها. هكذا فكرت توني وهي في طريقها إلى معرض وارينز الذي كان مغلقاً للجمهور. كانت التوافد مغطاة بشبكة الأمن المصنوعة من الصلب وكان الباب الزجاجي الثقيل مغلقاً وراة الباب ينظف السجادة بالمكنسة الآلية بالداخل، وبدأ أنه كان يتوقع حضورها وأسرع ليفتح لها الباب رافعاً قبعتها.

«اسعدت صباحاً يا آنسة وارين».

وغطت برشافة إلى الداخل تبسم بينها وبين نفسها فقد أحست بفارق كبير بين المرة السابقة عندما حضرت تطلب عملاً وأغلق غراي الأبواب في وجهها وبين هذه المرة، لقد حدث تغير كبير في أقل من ثلاثة أسابيع وأخذت حياتها مساراً جديداً قاماً.

وقال البواب:

«عاد السيد لورنس ليتود من الخارج وهو في مكتبه في الطابق العلوي وقد طلب أن تذهبي إلى غرفته مباشرة».

وشقت توني طريقها عبر المكان الأتنيق وصعدت الدرج المغطى بالسجاد إلى الغرفة التي تحمل اسم السيد ج. ر. لورنس. ودخلت بدون أن تطرق الباب، وقالت في ابتهاج:

«ها قد حضرت طبقاً للتعليقات»

وبدا على وجهه شيء من الارتياح، وقال:

«هل نجحت في حزم كل شيء؟»

ثم حدق فيها في شيء من الشك وقال:

«انظري يا توني! رجعت للتو من الخارج، واضطرت للذهاب إلى ريتشوند بناء على طلب امرأة بلهاء سرت معظم مجوهراتها في عطلة عيد الميلاد ولم تستطع أن تدلي بأوصافها للشرطة ولم تكن متأكدة من أنها دفعت فسط التأمين الأخير وطلبت أن أقوم نيابة عنها بكل الاجراءات، كان زوجها يقوم بكل شيء نيابة عنها ولكنه مسافر إلى هونغ كونغ الآن».

واستمعت إليه توني بشيء من المشاركة والفهم، وواصل حديثه:

«وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد وجدت عند عودتي أن السيدة جينز متغيبية بسبب ولم تصل كذلك الفتاة التي أرسلتها لي الآنسة يلاك ولهذا أجدني مضطراً إلى أن أنجز كل هذا بنفسى - آسف... ولكنك ستضطرين أن تسافري إلى الطرق البيضاء وحدك رغباً عني».

وجذب الهاتف نحيوه وقال:

«سأطلب الاستعلامات وأطمئن على مواعيد القطارات بالنسبة اليك و...»

وقاطعته توني قائلة:

«دقيقة واحدة! لا داعي لأن تقوم بذلك عني! فأنا أعرف كيف أحصل على مواعيد القطارات وأرتب سفري...»

وزال عنه التوتر شيئاً ما كأن لمسة من الأشرار أضاعت عينيه وقال:

«لاني دائماً أنسى...»



ودفع الطائف إليها، وقال:

«تولي أمرك إذا»

وعاد يفحص البريد الذي أمامه. كان رقم هاتف مكتب استعلامات  
بإذنتون منشوئاً في ذاكرة توني. ورفعت الساعة، وتوقفت لحظة ثم أعادتها  
إلى مكانها، وقالت:

«لو أنني بقيت معك، هل أستطيع أن أقدم أية مساعدة؟»

كانت هناك فترة صمت، ورفع رأسه قائلاً:

«تقصدين أنك يمكن أن تساعدني في العمل؟ في هذا؟»

وأجابته:

«بالطبع! فأنا معتادة على العمل وأنت تعرف ذلك»

«ولكن لماذا تتعيب نفسك؟ لست بحاجة إلى العمل الآن»

«العم بنيامين يريدني أن أشغف بالعمل ولعل هذه فرصة للتعرف عليه»

«إن ما أقوم به من عمل ليس مثيراً إلى حد كبير فأنا أنعامل مع العقود والجهارك

ومثل هذه الأمور»

«ولكنها أعمال ضرورية»

«ما الذي تستطيعين فعله؟»

وابتسمت وقالت:

«لم تقرأ أوراقي التي أرسلتها لك الآنسة بلاك»

«تعرفين أنني لم أقرأها وتعريف السبب...»

«حسنًا... الاختزال بسرعة، جيدة، والنسخ على الآلة الكاتبة، ممتاز والفرنسية

والإيطالية بتقدير (أ) ومعرفة بالألمانية، أما مسك الدفاتر فلا أحسنه، هل يمكن أن

أكون ذات فائدة؟»

وابتسم وقال:

«ومن أكون حتى أرفض مثل هذه الخبرة العظيمة؟ هيا إلى العمل»

ووجدت توني نفسها تعمل في سهولة إذ كانت طريقة غراي في إنجاز

العمل ملائمة تماماً وأعجبت بسرعة بديته وحقه ذكائه، لم يكن يتردد في اتخاذ

القرارات وإذا ما جدت مشكلة درسها في صمت واتخذ قراره بعد تروثم انتقل إلى  
النقطة التالية. كان يراعي مشاعرها ويتوقف بين الحين والحين ليطمئن إلى أنها  
تلاحقه وأطمأن إلى مقدرتها بعد وقت قصير وكس اهتمامه للعمل الذي بين يديه.  
وفي الثالثة وخمس دقائق وضع آخر رسالة كتبها في سلة الرسائل وأسند ظهره  
إلى الكرسي وقال:

«هل أنجزت كل هذا؟»

وابتسمت توني وقالت:

«أعتقد أنني أنجزت كل شيء، ما عدا كلمة واحدة في ذلك الخطاب إلى وكيلكم  
بالبرازيل عن طرد من حجر الأوبال انها...»

وقرأ لها الكلمة وصححتها.

كان غراي من وجهة نظرها قد تغير تماماً وأصبح جاداً ومتعقلاً، وسألته:

«هل تشتغل أحياناً في تشكيل المجوهرات؟»

وابتسم وقال:

«بيدي؟ ليس بمهارة كافية... عملت مرة بتوجيه جولايتر، وهو حرفي لا يبارى.

كان والذي شريك بنيامين وكان يصّر على أن أتعلم الحرفة من بدايتها

وسأريك في يوم ما بعض القطع الممتازة التي صنعتها بنفسي. عندما توني والذي

اضطرت أن أخذ مكانه في العمل الذي يأخذ الآن كل وقتي».

وحول الحديث فجأة يقول:

«مضى أكلت لأخر مرة؟»

وأجابته:

«منذ الانطار»

«وأنا أيضاً، إذا ما وأيك في الذهاب إلى كارلي للاستفسار فيما لعله يرسل إلينا

شيئاً؟ أعتقد أنه يدخر جهداً في تلبية طلباتنا فهو يعرف عاداتنا في الطعام... هل

تعرفين الطريق؟»

كانت تتذكر الطريق إلى مطعم كارلي وتذكرت أول مرة ذهبت إليه مع

غراي... كان يحاول بكل جهده أن يجعلها تخافه ولكنه فشل، وصمدت لتأخذ



مكانها كعضو في أسرة وارين ولنصبح جزءاً من عمل الأسرة... واتسع عالمها  
فجأة الى عالم مشرق يحمل بين طياته آملاً غامضاً في شيء ينتظرها... لم تكن  
تعرف كنه ذلك الشيء أو تستطيع أن تسميه.

ووجدت منعظاً نحر المر وصعدت درج المطعم كأنها على جناحين.  
ورجعت جيوفاني في ركن من قاعة الطعام يدخن ويقرأ، تذكرها وذلك  
احتراماً لها عندما دخلت قائلاً:

«عفواً يا أنسة فالعمل ضعيف اليوم»

وواصل يقول:

«غداً لشخصين في مكتب السيد لورنس؟ اهلاً... يا أنسة... سأخبر السيد  
كارلي»

ولم تقض ربع ساعة حتى صعد جيوفاني الى المكتب في الطابق العلوي  
يحمل صينية مزدجة بالطعام وقال معتذراً:

«مع تحيات السيد كارلي واعتذاره، فلا زال العمل في شبه اجازة»

وأخلى غراي مكاناً للصينية على المكتب الكبير وقال:

«إنني واثق أنه طعام فاخر»

وأوماً جيوفاني مبتسماً وقال:

«سوف أحضر القهوة على عجل»

وأنصرف.

وقالت توني وهي تقضم جزءاً من رغيف الخبز:

«لا أستطيع الانتظار، لم أكن أدرك أنني جائعة الى هذا الحد»

وعلق غراي قائلاً:

«ألم أقل أنك طفلة؟ تأكدت من ذلك الآن»

وساد صمت بعض الوقت قطع غراي بقوله:

«توني، أدرك الآن أنني أخطأت كثيراً في حقلك، إنني أسف»

وأحمر وجهها، وقالت:

«لننسى ذلك ولا نتحدث عنه بعد الآن»

وقال في طجة جادة:

«هذا أكثر مما استحق»

وابتسم وسكب الشراب في كأسين، ورفع كأسه وهو يقول:

«دعينا نشرب بأمل أن تستطيعي نسخ هذه الأوراق يا توني»

وقالت وكأنها أصبحت من جديد الطابعة المتواضعة على الآلة الكاتبة:

«سأحصل الرضى يا سيدي»

ورن جرس الهاتف على مكتب غراي، ورفع الساعة، يقول:

«نعم... نعم... أهلاً يا مارشا كنت أنتظر لاسمع أين أنت الآن؟ تلقيت

مكالمة من كارين وهي مسرورة جداً بالخبر»

وصمت لحظة ثم قال:

«أوه... حسناً! أنت تعرفين أن جو في غاية القلق ويحرص على أن يكون كل

شيء على ما يرام، وفي موعد بالضبط لماذا لا تحضرين لتتحدث في الموضوع؟

حسناً الى اللقاء»

وأقبل على الطعام بشهية، وقال:

«هذه مارشا المصممة الجديدة الماهرة في مصنعنا، سوف تحضر خلال دقائق،

إنها في المصنع الآن تقدم بعض أفكارها الى جولديها اللبابة والمهوبة وسوف

تعتمد عليها الشركة كثيراً في المستقبل»

وخطر لتوني أن مارشا هي نوع النساء الذي يميل اليه غراي. وعندما

حضرت مارشا تأكدت من ظنّها... كان مظهرها ملتئماً للنظر بدرجة كبيرة

وهب غراي للقاءها وتحياتها بطريقة تدل على أنه تأثر بذلك المظهر قائلاً:

«إنك تبدو رائعة يا مارشا كمعدي بك دائماً»

واقتربت منه وهي تقول:

«أشكرك يا غراي! إنك لطيف للغاية»

كانت تتلأل في المكتب كلهب متقد بشعرها المائل الى السواد وعينيها

الشفافتين ووجنتيها البارزتين وبشرتها السلافية الجميلة. كأنها مقيلة من عالم

آخر. كانت هذه هي مارشا المصممة الجديدة في متجر وارينز.



وعرف غراي الواحدة بالآخرى وأحست توني أنه لم يكن من العدل أن تواجه بهذه الفتاة الراقصة في الوقت الذي بدأت فيه محفل مكانها في وارينز.. كانت الهوة بينها واسعة وعميقة في الوقت نفسه.

ولكن، مارشا لم تكن تعي أن هناك أية هوة بينها، لقد صافحتها وابتسمت لها، كانت أسنانها بيضاء كلوز مقشور، وقالت:

«أنت أنطونيا! من أسرة بنيامين، حدثني عنك...»

ورفت تفحصها للحظة ثم قالت:

«ولكنك جميلة، شعرك يشبه أوراق شجرة جميلة لدينا في البيت ولكنها لا تزرع هنا...»

وأخذت حفنة من شعر توني وصارت تشكّلها، وتراجعت توني إلى الخلف في دهشة، وضحك غراي قائلاً:

«مارشا تريد دائماً أن تشكّل الناس، انها لا تستطيع أن تقاوم رغبتها في التصميم والتشكيل»

«أوه... أنتي أسفة!»

وعبرت عنها مارشا عن الأسف العميق، وواصلت:

«غراي على صواب، إنني أزعج نفسي كثيراً في شؤون الآخرين! أرجو أن تسامحيني!»

وبدا في طبعها الصلق الكامل، وحدثت توني نفسها بأنها ينبغي ألا تقع تحت تأثير فكرة مسيئة عن مارشا وسارت إلى المدفأة ونظرت إلى المرأة البيضاء في مكتب غراي، وقالت:

«أعتقد أنك على صواب يا مارشا. سأحاول أن أشكّل شعري وفق إقتراحك»

وجاءت مارشا خلفها تشكّل لها شعرها الذهبي حسب ذوقها وقالت خلفها كلفان يستعرض الوضع الأمثل مع عبارات الرد والاستحسان وقال غراي:

«عندما تنتهيان تماماً... هناك موضوعاً خاصاً بالعمل أحب أن أناقشه وسيكون عليّ أنا و توني أن نعود بالسيارة إلى المنزل الليلة.»

وامتدارت مارشا تقول:

«أسفة يا غراي فقد شغلنا عنك وسأقدم لك الشير جالاً...»

وسحبت كرسيّاً، وجلست إلى جواره على المكتب وقالت:

«يبلغك جر أنه سيحصل طول الوقت حتى يكمل أخر قطعة نعرضها وهي عقد الزمرد كما تذكر، إنه رائع في خطوطه وفي فخامته وصقله.»

وأمسكت توني بكرسيها، وقالت:

«أسفة اذ أقطع الحديث، ولكن أين أنسخ هذه الخطابات؟»

ونفض غراي وهو يوضح للارشا:

«توني تساعدني على إنهاء البريد، وجدت رسائل عديدة عندما حضرت اليوم ولم تكن السكرتيرة موجودة.»

وفتح باب غرفة صغيرة ملحقة بمكتبه، وقال:

«هذا المكان أفضل ما لدينا.»

ونظرت توني عبر الغرفة ووجدت طاولة لألة الكتابة ومكتباً وكرسيّاً وألة

كاتبية وحاملة ملفات، وقالت:

«سأحاول!»

وأوماً غراي، وعاد إلى مارشا بعدما أغلق الباب خلفه، وجلست توني

إلى المكتب وفتحت الأدراج لتجد ورق الكتابة والكربون وخطوطها أنها كانت

ستعمل في تلك الغرفة عندما تقدمت للوظيفة كسكرتيرة ولكنها الآن الأنسة

أنطونيا وارين ابنة اخ بنيامين وارين... وابتسمت... كان غراي سيحضر

إذ ذاك رئيساً لها، ولكنه الآن شيء آخر لم تكن تعرفه بالضبط

وجاء صوت مارشا من الغرفة المجاورة تضحك بصوت يسخر من حولها

ككل شيء آخر فيها، وجاء كذلك صوت آخر لم تكن سمعته من قبل، صوت

غراي وهو يضحك ضحكة صريحة تبين أنه كان على سجيته قائماً يستمتع

بضحكة مارشا.

ورفعت توني غطاء الآلة الكاتبة وجلست تنسخ الخطاب الأول...



عطرها الساحر في المكان، وقالت:

«لا بد أن يرى بعضنا بعضاً كثيراً، قال لي غراي - أنك ستلتصمين الينا! يا غراي! انقل ابرابك الضخمة خلفي!»

وعاد غراي يعلو وجهه البشور والسعادة وقال:

«سوف يسير كل شيء على ما يرام! سيضم المعرض أزياء المصممة كارين لاينر رجل وارين ولا بد أن تشهده يا توني فقد ترغبتين في شراء شيء منه.» وابتسمت وقالت:

«أنا أشتري من معرض أزياء هذا يبدو خيلاً!»

«بل إنه عين العقل في نظري! فجسمك يلائم أزياء لاينر تماماً.»

قالما وهو يقرأ أول رسالة مما طبعته توني.

«لم أفل أن الأزياء لا تناسبني... ولكن المشكلة مشكلة توفر النقود لشراء هذه الملابس...»

وقع الرسالة وهو يقول:

«سوف يصبح هذا أمراً عادياً في حياتك خاصة إذا انضمت الى الفريق كما قالت مارشا.»

وأحست توني بالاحباط فلم يكن غراي يبدي اهتماماً فعلياً بالموضوع ولم تستغرب لذلك فقد شغلته مارشا طويلاً، ووقفت تنتظر حتى وقع الرسالة الأخيرة، ولزمت الصمت وهما يغادران غرفة المعرض ويخترقان الشوارع تحت الضيق الى مرآب السيارة، وقال:

«سوف نمر بالمصنع أولاً فلدي مسائل أريد أن أحسمها مع جو ثم نتجه مباشرة الى الطرق البيضاء لتصل مع وقت العشاء.»

كان المبنى القديم الذي يضم مصنع وارين أصغر بكثير مما تخيلته توني وبدا الطابق الأرضي خالياً بعد أن تكرر هجوم اللصوص عليه، فقد سدت النوافذ بالواح خشبية وطبعت بعض الشعرات على الجدران غطاها الطين في أجزاء منها...

وأوقف غراي السيارة ونظر الى المبنى المتآكل قائلاً:

## ٨ - لا خوف عليه من الليل

صحيح أن توني كانت طابعة سريعة على الآلة الكاتبة لكنها حاولت أن تبطل من سرعتها حتى تنصرف مارشا، لكن الوقت مضى، ومحمول الشفق الى ظلام، ولم تستطع أن تنتظر لفترة أطول فجمعت الرسائل، وأخذتها الى غرفة غراي ووضعتها على المكتب قربه، وقالت:

«ها هي الرسائل يا سيدي تنتظر توقيعك.»

قالتا بطريقة فيها شيء من الاشارة انها الآن الآتية أنظونيا وارين وليست مجرد طابعة صغيرة...

وجمع غراي كومة الرسائل أمامه ورفع بصره مبتسماً، وقال:

«أشكرك يا توني! لقد أدت خدمة عظيمة.»

ونبهت مارشا قائلة:

«لا بد أن أنصرف حتى لا أؤخر رحلتكما، الى اللقاء يا غراي! سأراك قريباً.»

ووضعت يدها على ذراعها، وقالت:

«أنت تعرف مكانتي.»

وأجاب غراي:

«نعم، انتظري سأوصلك! أعتقد أن بيتس أنصرف اذ طلبت اليه ألا ينتظرا»

وأخذت حقيبة يدها، وقالت:

«الى اللقاء يا آنسة أنظونيا وارين!»

ولدهشة توني، انحنى مارشا الى الأمام وقبلتها قبله سريعة وانتشر شلى



«كأنه مقلب نقابة! من يصدق أن هذه كانت منطقة محترمة عندما جاءها وارين لأول مرة. بنيامين يفكر في نقل المصنع برمته الآن إلى الطرق البيضاء»  
وعلفت توني:

«فكرة معقولة! ولكن هل يوافق العمال على ذلك؟»

«جو موافق وزوجته تحب الحياة في الريف، ولكن بعض العمال، الآخرين قد يعترضون فإذا توفر لهم المسكن ربما يزول الاعتراض، أعتقد أن في هذا ما يثير اهتمامك لأنه مجال للعمل في الرعاية الاجتماعية»  
وقالت في هدوء:

«يرافقني»

ولم تطلب في هذه المرة أن تبقى في السيارة حتى ينهي عمله مع جو كان مظهر الشارع الحالي يوحي بالخطر، وصعدا الدرج - الخشبي المتهالك، ووجدا لا يتمر وحده في المصنع كالمرّة السابقة عندما أحضرها غراي إلى المكان، وانشرح صدره لرويتها، وأخرج العقد الذي كان يقوم بانهجازه لمعرض كارين لايتز. وما كادت توني تراه حتى أخذت بجباله، كانت حبات الزمرد تتلألأ كبحيرات خضراء عميقة في قمة جبل. وتترايط مع بعضها البعض بكتل أصغر من البلاتين المرصع بالماس، ربط بينها جميعاً مشبك صمم بطريقة رائعة تصورتها من تصميم مارشا وأمسك جو بيدها واحاطها بالعقد ثم اطفأ كل الأضواء في المصنع وصارت الحلي تتلألأ وتلمع، وأخذت توني تحرك يدها في اتجاهات مختلفة معجبة بالعقد الجميل، وقالت:

«إنه رائع، ومتقن للغاية وفاخر»

ورفعت رأسها وابتمت لحو قائلة:

«ألا تشعر بالزهو الكبير وبالنجاح لأنك تستطيع أن تصنع شيئاً كهذا؟»

«هذه هي الحقيقة يا أنسة، إنك تفهمين شعور المرء بالنجاح! ألا تريدان أن تصبحي فتاة يا أنسة وارين؟»

وهزت رأسها قائلة:

«كنت أفتنى ذلك، وكان والدي غنائاً، وكثيراً ما حدثني عن السعادة التي يحس بها

الإنسان عندما يبدع شيئاً! هل لي أن أحضر في وقت لأشاهدك وأنت تعمل؟»  
«يكون لي الشرف يا أنسة وارين»

وأخذت توني تتجول في المصنع بينما أخذ غراي يناقش مع جو مسائل تفصي العمل.

وقالت وهي تنزل الدرج الخشبي المتهالك بعد ذلك بدقائق:

«أجدي أنهم الآن ما تعنيه عن التقاليد وأصول الحرفة والافتقان»

والتي عليها نظرة وهو يقول:

«لن نحتاجي إلى مزيد من الاتعاج لتحتلي مكانك الذي تستحقينه عن جدارة في الشركة»

وأجابت:

«إنني أتطلع إلى ذلك»

وفتح الباب الخارجي، وتقدم إلى الرصيف وتوني تسير خلفه مباشرة وأحست به يتصلب وهو ينظر حوله ثم يصيح:

«أخفت! السيارة أخفت!»

ووقف ينظر على طول الطريق وقد مسح لغضبه أن يعبر عن نفسه بطريقة لم تعهدها توني من قبل... لم يكن في الطريق سوى جماعة من الغلمان ولم يكن هناك أثر للسيارة وعبر الطريق وأخذ يتحدث إليهم. وعندما رجع كان وجهه قلقاً وقال:

«شاهدوا ثلاثة رجال يركبون السيارة ولكنهم لا يستطيعون وصفهم ويعتقدون أن أحدهم كان يحمل حقيبة، هذه المسألة لا يحلها إلا الشرطة، سوف أجري بعض الاتصالات»

كانت هناك مكالمات طويلة مع الشرطة من المصنع ولم يكن بوسع توني

وجولايتز إلا أن ينصتا وينتظرا، وعندما أنهى المكالمات قال:

«ألم تحضر سيارتك معك يا جراه»

«أسف يا سيد غراي، أخذتها زوجتي اليوم إلى السوق»

«اذن سأسير إلى المحطة، ذلك أسرع من انتظار تاكسي، فالشركة تريدني أن أوقع



على المحضر وأن أعطي مزيداً من التفصيلات.»

ونظر إلى توني في ضيق:

«لا داعي لأن أشقيك معي ابني هنا في رعاية جو وسأمر عليك عندما أكمل المهمة مع الشرطة.»

وعندما إنصرف أخذت جو يناقشان المشكلة بالتفصيل، وقال جو: «إنه من المحتمل أن تعثر الشرطة على السيارة متروكة في مكان ما... عندما يحقق الأشرار غايتهم منها.»

«إنهم يستخدمونها لتقلعهم إلى مكان ما ثم يتركونها، وهذا يحدث باستمرار.» وأضاف في أكتاب:

«هناك مكان على الطريق أغار عليه الأشقياء ثلاث مرات في السنة الفائتة.» وتهد وقال:

«أفنى أن أنتقل من لندن اتني لا أحرص على الإقامة فيها يا آنسة وارين.» ونظرت توني عبر الغرفة وقالت:

«هل حدث سطر عليكم في يوم من الأيام؟» وابتسم جو قائلاً:

«لا خطر من ذلك؛ فتوجد هنا أشياء كثيرة مغرية ولكنها لا تستحق الجهد الذي يبذل للحصول عليها، والسيد غراي رجل حاذق يستخدم أحدث إجراءات الأمن وسوف تتدهشين عندما تعرفين الأجهزة التي أحضرناها بما فيها تلك الأجهزة الإلكترونية. ليتهم يهربونها فسوف ينكشف أمرهم قبل أن يضعوا أيديهم القلعة على أية ماسة أو قطعة من الذهب.»

وهز رأسه في أسف قائلاً:

«إنه عالم قاس اليوم يا آنسة وارين، ولكن السيد غراي يشق طريقه، إنه يتتبع كل ما يحدث دقيقة بدقيقة.»

ومضت قرابة الساعة قبل أن يعود غراي، كان جو خلالها قد أعد الشاي، وكان هو وتوني يشريان الشاي ويأكلان البسكويت... وكان جو يتحدث عن الحديقة التي يحلم بإنشائها عندما يذهب إلى غلوشستر.

وتنهض جو عندما دخل غراي وسأله:

«أية أخبار عن السيارة يا سيد غراي؟»

كان غراي يبدو منهكاً ويشعر بالأحباط وهز رأسه وقال:

«أعطيت أوصاف السيارة للشرطة، ولكن الأمل ضعيف في أن، يجدها الليلة، حصل سطر على مصرف في سوامي لندن ولذلك فإن نياً إختفاء سيارة لا يحتل أهمية كبيرة.»

وهز كتفيه، وقال:

«سيكون علينا أن نتنظر لنرى.»

وقال جو:

«هل هناك شيء ثمين في السيارة؟»

«لا شيء بصفة خاصة سوى...»

ونظر إلى توني:

«محفظة ملابسك وأخشى أن تكون قد ضاعت.»

وقالت موكدة:

«لم يكن فيها شيء مهم.»

وحاولت أن تتذكر محتوياتها، وفي أي حال فسوف يذهبان إلى الطرق البيضاء الليلة، ولكن كيف يذهبان وقد وقع ما وقع... وإذا لم يذهبا... فأين يقضيان الليل؟ ونظرت إلى غراي وكانت عيناه تتجولان في المتاحف وفي الخزائن وظلت أنه كان يطمئن إلى سلامة أجهزة الأمن وتفحص الخزائن المصنوعة من الصلب وقال:

«كل شيء محكم تماماً يا جو؟ حسناً، إذا نخرج... هناك تاكسي ينتظر بالخارج وستوصلك إلى بيتك.»

وأزلا جو في محطة فكتوريا، سألت غراي عندما رأت التاكسي يأخذ طريق قصر بكنفهام.

«ال أين تذهب؟»

«إلى شقتي فعندي استراحة في شيلسي. وهناك نأكل ثم ندرس الأمور.»



وتوقف التاكسي أمام بيت قديم عند جسر شيلبي. وكان كل شيء ساكناً...  
توقف في كل ركن ووعاء كبير للزهور الزينية الزرقاء يفرح عطرها. وحاولت  
توني أن تقارن بينها وبين مسكنها في حي هورنبي. ولم تجد وجهاً للمقارنة.  
وجلبها المصعد إلى الطابق الثاني وفتح غراي الباب رقم ١٧ - لتدخل  
توني أمامه، وخلع معطفه وألقى به على أحد الكراسي وقال:

«خذي راحتك... غرفة الحمام هناك، تقابلها غرفة النوم. آسف لضيق حفيبتك»  
وواصل في شيء من الحموية:

«أول ما نحتاجه الطعام، إنتي على ثقة أنك جائعة مثلي. كانت وجبة كارلي  
كافية ولكنها لم تشبعني، انهم يقدمون شواء ممتازاً هنا حسب الطلب. وإذا  
وافقت فسأنزل إلى الطاهية لأرى ما يمكن أن تقدمه البيت»

وهزت كتفها، وقالت:

«كما ترى، انني بين يديك حالياً»

وسار إلى الباب ثم رجع، وقد بدا في عينيه الحليب من جديد وسألها:

«هل تعنين ذلك حقاً؟»

ولم ينظر الإجابة:

وبدأت تستطلع المكان، كانت شقة صغيرة ولكنها فاخرة وحديثة كانت غالبية  
الناس لأحد رجال الأعمال في لندن له بيته في الريف، ونجولت في الشقة في  
شيء من العصبية وأطلت على المطبخ كان كل شيء يكفي فقط لاعداد الطعام أو  
الشراب لشخصين، وكان يوسعها أن تتخيل فتاة أليفة مثل مارشا تأتي إلى  
هذا المكان بعد حفل موسيقي أو مسرحي لتصنع الأومليت وتنادي في مرح من  
خلال الردهة لغراي الذي يتمدد على أحد الكراسي الوثيرة في غرفة الجلوس،  
وكان الحمام الأزرق بلون تبرز فيه قطع معدنية لامعة، أما غرفة النوم فكانت  
مسلية وفيها سرير يتسع لشخصين، وخرجت على الفور وأغلقت الباب بالحساس  
زوجة الرجل ذي اللحية الزرقاء في القصص.

غرفة واحدة للنوم فقط، إذا فقد جسم الأمر وليس ثمة مجال للضائحة الليل معاً  
في ذلك المكان ولا بد أن توضح له ذلك حالاً يعودا

واغتسلت واتجهت إلى المرأة لتظلم شعرها، ووجدت مندبلاً على الرف  
الزجاجي، كان مندبلاً مطرزاً واستطاعت أن تميز رائحة العطر الساحر الذي كان  
يفرغ من مارشا قبل أن تقرأ الحرف «م» على أحد زوايا المندبل مارشا،  
حسناً، وهزت كتفها، وأخرجت المشط من حقيبة يدها وأخذت تمشط شعرها بعدم  
اكتراش.

ووجدت في حقيبة يدها غطاء للرأس من النايلون يحكم على الرأس بخيط  
أسود ناعم من الحرير، وجذبت الخيط فجأة وشكلت شعرها على هيئة ضفيرة  
وربطته بالخيط بقسوة ثم وقفت لتفحص النتيجة في المرأة، وتذكرت صورة  
أخذت لها وهي في الصف الخامس الابتدائي... كانت وثيقة الصلة بمنظرها الآن،  
وتأكدت أن وجه الشبه بينها وبين ابنة عمها مبدج اختفى تماماً بتلك  
الضفيرة، وهكذا لا يجد غراي أي شبه بينها وبين الزوجة التي فقدتها.

وعادت إلى غرفة الجلوس لتجد غراي عاد وقد وقف تحت مصباح يعلق في  
صحيفة وبدأت عليه الدهشة عندما لاحظت تصريجة شعرها الجديدة ولم يعلق  
وواصل النظر في الصحيفة يقرأ العنوان الرئيسي:

«سقط على أحد البنوك، البوليس في مطاردة بالسيارات، رجل قتل»

وهز غراي كتفيه قائلاً:

«صديق ظني... لا أمل في العثور على السيارة الليلة»

وألقى بالجريدة جانباً وقال:

«سنضطر إلى قضاء الليلة في المدينة يا توني»

وعلفت قائلة:

«وهل بإمكاننا ذلك؟ أليس هناك قطار يوصلنا؟»

واستفسر قائلاً:

«هل أنت متضايق؟ قلت انك بين يدي على ما أذكر»

وتعثر في الكلام قائلة:

«لم أكن أقصد»

«لم تكوني تقصدين؟ سئري ما رأيك في أن نخلع القناع؟ لا أحب أن تظهر



السيدة ورد أنني اعتديت على قاصرا»

وقبل أن تدرك نيته امتدت يده إلى شعرها، وجذب الحيط وتهدل الشعر حول كتفها كأنه ستان جري اللون ولمسه غراي بأصابعه خائلاً:

«هكذا أحسن! أرى أن أتصل وأخبر بنيامين بما حدث.»

وأخذ الهاتف من مكانه وجلس على أحد الكرسي الرثيرة ووضع الآلة على ركبتيه وبدأ يطلب الرقم.

ووجدت توني نفسها ترتعد بانفعال الغضب، كيف يجوز على أن يعاملها كما لو كانت قطعة خضالة وقعت بين يديه وصارت ترقبه وهو يجلس وقد انحني رأسه القائم على التليفون وتحدث سافاه وبدت عليه الثقة الكاملة في استرخاءه، ولم تكن الاجابة بعيدة عن ادراكها.

اعترف لها أن وجه الشبه بينها وبين ميدج كان يفلقه في أول الأمر، وخلال عطلة عيد الميلاد وفي الوسط العائلي حاول أن يقنع نفسه بأنها ميدج وأنه حصل على زوجته من جديد، ولكن ذلك كله تغير الآن فقد عاد إلى لندن في جوه الحقيقي يدير عملاً معقداً ويكاد يكون وحده، ولقد أبدى سعادته بمعاونتها في تلك الأمسية، لم يكن يحلم بخيال ميدج هنا وكانت أمامه الحياة الحقيقية تتشغل في مارشا التي كانت تستطيع أن تشبعه من كل الوجوه.

ورفعت توني ذقنها وتصلب ظهرها! ان هذا ما أرادت! لن تحتاج إلى مصارعتة مرة أخرى.

وجاءها صوت من الداخل يقول - أو أنك تصارعين نفسك - وكان الصوت خفيضاً أمكنها أن تتجاهله.

كان غراي قد توصل إلى الطريق البيضاء وكان يحدث بنيامين وشرح له كل شيء عن السيارة المسروقة، وقال:

«وهكذا قاتني أختي يا سيدي ألا نستطيع العودة الليلة فليس أمامنا من سبيل اليقظة، وبصراحة قاتني لا أريد القياضة اللينة وخاصة أنني سأضطر إلى العودة في الصباح، كان يوماً خائلاً. أنطونيا! أنها بخير عاونتي بدرجة كبيرة في المكتب، نعم أوافق تماماً نعم، سأفعل ذلك! هذا ما كنت أفكر فيه! نحن الآن في شقتي،

وستناول العشاء»

وضحك، وقال:

«أعد بأنني سأعني بها، هل تحب أن تكلمها بنفسك؟»

وبعد الساعة إلى توني وأخذتها منه وهي تلف على أبعاد مسافة يسمح بها السلك، وسمعت صوت بنيامين يعلن أسفه على سرقة سيارة غراي وقال:

«من المؤسف أن أمك ليست هنا حتى تكلمها، خرجت إلى الكوخ الآن لتعصر بيضاً للبطور، سوف أطمئنها عندما تحضرا هل أنت بخير تماماً يا أنطونيا؟»

نعم إنني بخير»

وأصنّت بذراع غراي يحيط بخصرها ويشدها لتجلس على ذراع كرسيه.

«قال لي غراي أنك ساعدته في أعمال المكتب...»

«يقدر ما أستطيع.»

كانت ذراع غراي لا تزال تمتد على طول ذراع الكرسي خلفها.

«حسناً جداً يا ابنتي العزيزة، أشعر بالاطمئنان الكامل عليك طمناً أن غراي هناك يعني بك وأرجو أن نخطراناً بما يحصل.»

ووعده بذلك، وودعته، وأعطت الساعة لغراي الذي بدأ يتحدث عن بعض تفاصيل العقل مع بنيامين. وكانت تود أن تنهض ولكن ذراعه المازمة أمسكت بها وحاولت أن تملص بلا فائدة، ولم يكن بد من أن تجلس حيث هي حتى انتهت المكالمة.

ووضع الهاتف على الأرض، وقالت له:

«هلا تركتني أذهب؟»

وططق لسانه وقال:

«كنت أظن أننا صرنا أصدقاء، لم أكن أتصور أنك تكريميني إلى هذه الدرجة»

وتعثر تقول:

«ولماذا تظن أنني أكرهك؟»

وسادت فترة صمت طويلة ورفع بصره إليها، وفي عينيه شيء من التأمل ثم أطلق سراحها ونهض على قدميه وقال:



«لماذا أظن أنك تكرهينني؟ لا أعرف؛ هذا ما أحس به.»

وبلعت توني ريقها، لم تكن تريد شيئاً سوى أن تغوص بها الأرض وتختفي عن الأنظار.

وأحضر لها كأساً من الشراب وكانت لا تزال تجلس على ذراع الكرسي وأحسّت بأنها لن تستطيع أن تنهض ثانية.

وفتح باب الغرفة ودخلت امرأة جميلة شعرها أبيض تحمل صينية وقالت: «هل أضع الصينية على الطاولة يا سيد لورنس؟ الشراب على النار ولن يحتاج أكثر من دقائق قليلة.»

وحملت الصينية عبر الغرفة مبتسمة لتوني، وترددت بعض الشيء وأغمضت وعصت عينيها ثم وضعت الصينية على المنضدة بطريقة مفاجئة نوعاً، كانت توني قد تعودت على ذلك من أولئك الذين كانوا يعملون مبدج.

وقال غراي:

«شكراً يا سيدة وود، أنتك معجزة، توني اليك مدبرة المنزل الممتازة التي تحول الاستراحة إلى بيت كامل، وهذه هي الآنسة وارين يا سيدة وود، ابنة أخ السيد بنيامين وسوف تنضم إلى الشركة.»

وقامت السيدة وود بكلبات مناسبة، وصافحت توني ثم خرجت وهي لا تزال تحت تأثير الارتباك.

وعلمت توني:

«إنها تبدو إنسانة لطيفة.»

«نعم إنها كذلك.»

واسترخى غراي على كرسي في الجانب الآخر من الغرفة وأخذ صحيفة المساء. وفردت توني المفروش ونظمت أدوات المائدة ثم عادت ترتشف شرابها ولم يرفع غراي بصره عن الصحيفة، حتى عادت السيدة وود ومعها الطعام.

وعندما صاروا وحيدين في الغرفة نهض وأحضر كرسيّاً لتوني وقال:

«أأمل أن يعجبك.»

وقالت توني في أدب:

«إنه يبدو لذيذاً.»

وجلسا يأكلان في صمت، كان اللحم رقيقاً وجيد الشواء ولكن توني لم تكن لها شهية للطعام وزاد ضيقها شيئاً فشيئاً حتى جاء دور الأناناس، ونجيت أنها تسمح نفسها تأكل كأنها شاة تقضم العشب في المرعى.

وقال لها غراي:

«شيئاً من الجبن؟»

وارتعدت قائلة:

«لا شكراً.»

ثم التفتت لتسكب لنفسها القهوة من الغلاية الكهربائية.

وعندما أكملت الطعام، قام غراي بجميع الأطباق وحملها إلى مدخل الشقة ودق الجرس ليتنادي مدبرة المنزل وقال:

«كانت وجبة ممتازة يا سيدة وود، أشكرك! وضعت الفضلات في الخارج لتجميعها في الوقت المناسب.»

واسترخى على أحد الكراسي بينما جلست توني في قلق على حافة كرسي آخر، وسأها غراي:

«هل تشعرين بالتعب؟»

وقالت على عجل:

«لا، إنني بخير...»

ونظر إليها وهو يفكر قائلاً:

«اعتقد أننا ينبغي أن نفكر في ترتيب مبيتنا الليلة، هناك سرير واحد لشخصين، هل تشارك فيه؟»

«بالقطع لا.»

«هذا ما توقعته.»

واستغرق في تأمل ثم واصل يقول:

«للأسف! إذا علينا أن نفكر في شيء آخر، ما رأيك لو فقت أنت على السرير وفت أنا على الأرض هناك؟»



وقالت توني:

«لا!»

«ألا تشقين بي؟»

وقالت للمرة الثانية:

«لا!»

ورجع الى كرسيه وقال:

«إنك فتاة لا تعرف الا أن تقول لا!»

وخفض بصره الى السجادة ثم رفع بصره اليها ينظر في عينيها وقال:

«هل تقبلين أن تتزوجيني؟»

وقالت في لهجة خشنة:

«لو كانت لعبة فإني أظنها لعبة سخيفة!»

وكرر في صوت عقيق:

«إنها ليست لعبة...»

ووضعت يدها على حلقها وقالت:

«لا يمكن أن تكون جاداً!»

ولكنها وأنه جاداً... ولو قالت - نعم... فلن يكون عليه أن يبحث عن مكان

للمبيت! بل سيكون في وسعه أن يتصرف كما يحلو له بدون أن يقضب

بنيامين، وأخذ قلبها يتحقق في قوة لقد ذهب الى حد الزواج اذن ليعيش في عالم

من الخيال تلعب هي فيه دور زوجته الراحلة صيدج.

كان يرقبها، وخيل اليها أنه كان يقرأ أفكارها، وقال في هدوء:

«إنني جاد تماماً في طلبتي!»

وحدقت فيه بلون شحوب وجهها وقالت:

«اذن... لماذا؟»

وانحنى الى الامام في كرسيه وقد تشابكت يدها في ارتخاء واستقرت ذراعه

على ركبتيه كأنه يشرح نقطة في مناقشة من مناقشات العمل، وقال:

«اعترف انني لم تكن لدي أية نية للتفكير في الزواج من جديد الى الأبد ولكن

منذ ظهورك تغيرت الأوضاع شيئاً ما... إنني أجد بعض المزايا لكلياً اذا ما تزوجنا.»

«مزايا! لم أسمع في حياتي شيئاً مثل هذا، كأنه يصدر عن انسان يحلو من الاحساس!»

وابتسم لها تلك الابتسامة الضيقة المدمرة التي أحالت عظامها الى ماء قانلاً:

«إنك تعرفيني يا طفلي العزيرة بالتأكيد بدرجة لا يصح لك معها أن تهسيني

بالخلو من الاحساس، اصبري معي! انني أحاول جهدي أن يظل الموضوع في

أيدينا، كل ما أستطيع عمله في الوقت الحاضر أن أبقى في الجانب الآخر من

الغرفة ولو اقتربت منك أو لمستك ثانية، حسناً، انني لا أقول انني أستطيع أن

أنتصرف باستمرار هكذا، كالانسان مهذب تماماً.»

وشهق نفساً عميقاً، وقال:

«تعرفين جيداً أنني لا أخلو من الاحساس يا توني! وأعتقد أنك أنت الأخرى

لست كذلك.»

واحمرت وجنتاهما، وشدت عينيها بعيداً عن عينيها المحدثتين تجاهها وقالت في

صعوبة:

«إننا لا نتحدث اللغة نفسها، لا أستطيع أن أتزوج بدون حب!»

وقال في صمت غريب:

«حب! هل تقولين لي لماذا تعينين بالحب؟»

ولم ترفع عينيها، وقالت:

«ولماذا أقول انك لن تفهم؟»

«حاولي! وانظري!»

كانت هناك فترة سكون طويلة تركزت فيها عينا توني على يديها

المتشابكتين في تصلب أمامها ثم قالت:

«ربما يعني الحب شيئاً مختلفاً من وجهة نظر المرأة، انني لا أريد أن أحب فقط من

أجل...»

وتهدج صوتها في عجز عن الكلام... ولم تتكلم... ولم يحاول أن يقدم لها أية



وواصلت بعد برهة تقول في لهجة أكثر حزناً:

«أخبرني عمي بنيامين عن حجر كريم يمكن أن يصنع هذه الأيام، انه يشبه  
الماس تماماً ويخرج النار التي تخرجها أية ماسة طبيعية ولكنه في الواقع ليس الا  
تقليداً ولو تزوجتك لكان الأمر هكذا. ستكون هناك النار بالفعل، ولكن لا يوجد  
لحتمها شيء. نعم، مجرد مظهر خداع انتي آسفة، ولا أستطيع أن أشرح أفضل من  
ذلك»

وطال الصمت الذي أعقب كلماتها، ثم طال، وأصبح كثيفاً وصلياً وهجسداً  
كأنه شيء محسوس... ونهض غراي وهو يهز كتفيه يقول:

«شرحت جيداً والآن فان أنسب شيء لي هو أن أنسحب، وأترك لك الشقة الليلة»

لم تكن تعرف ما تتوقعه من وراء تلك المجابهة؟ الغضب؟ رعباً... أو الإغراء  
الذي يتخلله الرجال لاقتناع النساء أو الكبرياء والثقة بالنفس التي يجعله يتخذ  
من جاذبيته التي لا تقاوم سنداً في الحصول على ما يريد. لم تكن في بادئ الأمر  
بالتأكيد تتوقع ما حدث، شبه تقبل لجوابها في غير اكتراث، وأصحت بالنعوج  
لحزنها في مؤخرة عينيه... ما الخطأ الذي حدث لي يجعل الأسمية تنتهي تلك  
النهاية... الى شيء يقترب من العداوة التي كان يبدى نحوها أول الأمر؟

ودخل غرفة النوم ثم خرج منها ومعه حقيبة تشبه تلك التي يحملها المسافرين  
على الطائرة وقال:

«احتفظ بهذه الحقيبة دائماً للطوارئ»

وعلمت:

«ولكني لا أستطيع أن أخرجك من شقتك بهذه الطريقة، هل يمكن أن أنتقل الى  
أي فندق؟»

وأجابها:

«في هذا الوقت من الليل؟ وليس معك أي متاع؟ لا أمل! وفي أي حال لست على  
استعداد لتمضية بقية المساء في اتصال هاتفي مع الفندق لأعثر لك على غرفة  
لا سول تبهين أنت هنا وستجدين ملاءات نظيفة على السرير، إستخدمي ما

تحتاجينه بما في ذلك ملاسي إذا استطعت أن تلبسيها وهناك فرشاة أسنان جديدة  
في خزانة الحمام، خذها»

وسألته في كلمات متعثرة:

«ولكن... الى أين تذهب؟»

كانت ابتسامة ساخرة هازئة وهو يقول:

«لا تشغل نفسك بي في هذا الوقت المتأخر، لن أجد صعوبة في الحصول على  
مكان للمبيت»

ورفع معطفه وسار الى الباب قائلاً:

«أسعدت مساء يا توني! لن ألقك مرة ثانية»

وخرج.

لقد ذهب الى مارشا بالطبع، الى مارشا حيث الدفء وحيث المؤاساة الى  
مارشا بضحكاتها المتقطعة في صوت خفيض وفي مودة. يعطرها الفياض  
الساحر الى مارشا التي لن تعذبه ولن تذكره باستمرار بما فقده، ولكنها سلوى  
وعزاء. رأت توني كل ذلك يحدث رأت غراي يخرج في الليلة الباردة المظلمة  
ليدق الجرس، جرس شقة ما في مكان ما... ورأت مارشا تفتح الباب وهي  
تبسم في كبرياء...

كانت الغرفة دافئة، ولكن توني بدأت ترتعد، لقد تصرف بحكمة عندما  
جعلته يضي بعيداً مدفوعة بتشتتها واستغلاها الذي ورثته عن أبيهما. لماذا  
شعرت اذاً بأنها وحيدة وصائفة؟

وبدأت تنزع الغرفة في قلق تحاول ألا تراجع اللحظة التي يكون عليها فيها  
أن يجيب على ذلك السؤال... ولكنها الاجابة التي لم تعد تستطيع أن تتجنبها...  
كانت اجابة محطمة جعلتها تتوقف فوراً، ووضعت يدها على فمها لمنع نفسها  
من أن تصرخ بها.

كانت قد وقعت في حب غراي لورنس في عيني وجنون برغم كل مشاعر  
التعقل، ومع ذلك أرسلته الى امرأة أخرى...



## ٩ - سقطت... الى اعلى

وأضحت توني الليل في أحد الكراسي الوثيرة منكبشة كأنها حيوان مذعور، كانت منهكة تماماً ومع ذلك تامت يوماً متقطعاً كأنها تحمل عبئاً ثقيلاً. وعندما بدأ الضجيج يحف حول أطراف الستائر، استغرقت في نوم عميق صحت منه على صوت الطائف بعد خمس دقائق تقريباً. وسحبت نفسها من الكرسي، وكان المتكلم هو الشرطة تسأل عن غراي. ورقعت شعرها الأثعبت الى الوراء، ونظرت الى الساعة الكهربائية فإذا بها تشير الى التاسعة تقريباً، وأجابت: «أنتي أسفة... السيد لورنس ليس موجوداً الآن، انا سكرتيرته هل تترك له رسالة؟» «أرجو أن تطلبي اليه أن يتصل بالشرطة ويطلب الشاويش براون ممن فضلك.»

كان الانهاك يبدو في صوت رجل الشرطة كأنه سهر طوال الليل أيضاً. «نعم سأفعل... أشكرك... الى اللقاء.» وكتبت الرسالة على مفكرة الهاتف، ثم أخذت القلم مرة أخرى وأضافت: «عدت الى الطرق البيضاء بالقطار توني.»

وأوصدت باب الشقة بعد ذلك بعشر دقائق خلفها، وهبطت الدرج، وخرجت الى الجسر، كان التسيم البارد هب من النهر وأحست ببرودة الجو بعدما تركت الشقة المكيفة وعبرت الطريق وأسرعت في السير كانت مقتنعة بأن المني ينشط

للتفكير، ووجدت نفسها عند جسر وستمنستر بعد ذلك بوقت قصير، واكتشفت انها لم تكن تفكر على الإطلاق.

ووقفت تطل على النهر الملون بلون الازهار وعلى المارة الذين يهرولون، وقد شحبت وجوههم وخفضوا رؤوسهم خشية الرياح. كان المنظر صدي لما تحس به من كآبة... والتفتت والتجهت الى مدخل الاندراغراوند.

كانت تعزم العودة الى الطرق البيضاء بأسرع ما تستطيع. وماذا بعد ذلك؟ لم تكن تعرف، ولكن على الأقل ستكون مع الناس الذين يهتمون بأمرها فعلاً. وانصلت هاتفياً من محطة بادنجتون بعد أن عرفت موعد الفطار، ووجدت سائق بنيامين ينتظرها في السيارة، وابست ابتسامة ضئيلة وهي تركب السيارة فقد أحست عند ذاك بأنها بالفعل الآنسة أنطونيا وارين، لم يكن ذلك يعني لها شيئاً كثيراً عندئذ. ولكن المهم انها ستصبح مع أمها من جديد ومع بنيامين، وقد فرحا بعودتها وأبديا اهتماماً كبيراً بسباح ما حدث منذ غادرتها. وطأنت بنيامين الى ثقة غراي بأن معرض كارين لاينز في الأسبوع التالي يضم أحدث المعروضات، وأخبرتها عن سرقة سيارة غراي وعن اضطرابه لقضاء الليل في مكان ما بينما اضطرت هي لقضاء الليل في شقته في شيلي.

وعלת أمها:

«باله من رجل شهم كريم.»

ونظرت توني اليها ولكن نظرتها لم تكن تحمل أي تلميح بالسخرية وابتسم بنيامين ابتسامته الرقيقة. وأضاف:

هوعد بأن يعني بك يا عزيزتي، إنه يعرف ما تعنيه بالنسبة الي.»

كانت هذه العواطف تنجبه مباشرة الى خطوط دفاعها فلقد جثت عيناها طوال الليل.

وتتهددت وهي تنظر غير الرعدة الكبيرة المريحة وقالت:

«إنه شيء جميل أن يعود الانسان الى بيته.»



وعلى بنيامين :

«هذا هو أبداع ما سمعته منك.»

«إنه الحقيقة.»

باتت الطرق البيضاء بيتها في وقت لا يكاد يصدق وبدأت تفكر كيف تصيح جزءا من الأسرة ومن العمل بينما كان الموقف بينها وبين غراي أخذ في التأزم لأسباب عديدة.

وخرجت في تلك الأمسية إلى الاسطبلات لتشاهد للمهر، وهناك رأت دومينيك، كان يصفر وهو ينظف الحصان الكبير الأسود لوسيفر وظلت ترقبه لحظة قبل أن يراها، ولمكرت في أدرمان من جديد، كانت لدومينيك نظراته الطليقة وشعره الأشقر الكثيف وكان من الزاوية التي تقف فيها يشبه أدرمان الذي فاز بحبها الأولى، والتفت وقالت:

«توني ! لقد رجعت ! عظيم.»

وضرب لوسيفر براحة يده على رقبته ودفعه إلى الاسطبل ثم أغلق الباب وجاء ليعانقها قائلاً:

«كنت أفكر فيك في هذه اللحظة بالذات.»

«لا تخجل ذلك... أنك تبدو راضياً عن نفسك تماماً.»

«الحقيقة أنني كذلك. فالأمور تتحرك سريعاً، في عالم دومينيك لنش والطريق إلى القضاء الفسيح يفتح أخيراً.»

حقاً ؟ كيف ؟

«تذكرين أنني قلت أنني لن أفكر في أستراليا إلا إذا لاح شيء في مستقبل أن... ويبدو أن هناك جديداً في هذا الشأن، شيء لم تكن نتوقع أن يحدث بهذه السرعة و أن تريد أن تراك... انذهبي إلى الكوخ... فهي تعتقد أنك مهدت لها الطريق بشكل ما.»

أنا... أنا لم أفعل شيئاً»

وهز كتفيه، وقال:

«أنا لا أعرف! في أي حال انذهبي لتسمعي منها بنفسك. وسألتق بك عند الساعة الرابعة يا عزيزتي.»

وقالت توني :

«سأفعل ذلك.»

والفعلت طريقها، ولكن نفاها ثانية، وقال:

«هل ذكرت في العرض الذي اقترحتة عليك يا توني؟»

ولم تحاول أن تتظاهر بعدم الفهم، وقالت:

«بصراحة، لا! لقد عزوت ذلك إلى ما كنت فيه من نشوة مع شباب الفلاحين.»

وهز رأسه بقوة وقال:

«لا! على الإطلاق، لكن ذلك الاحتفال فقط أعطاني الشجاعة لأطلب منك ذلك... أعتقد أن حياتنا معاً في أستراليا ستكون حياة سعيدة.»

وواصل يقول:

«ربما أكون قد تجاوزت حدودي يا توني عندما تقدمت لخطبة ابنة أخ بنيامين وارين... ولكني لا أستطيع التراجع، لقد جئت بك يا حبيبتي.»

لم تكن تتظر ذلك منه ولم تكن لديها إجابة حاضرة، ونظرت إليه وهي تفكر:

«هل من الممكن أن تبعث الحياة في حلم ذابل؟»

ووضعت يدها على ذراعها في رقة وقالت:

«أشكرك لأتلك عرضت علي ذلك يا دومينيك ولكن الموضوع ليس وارداً بعد» واختفت الاشارة من عينيه وقال:

«حسناً، ولكن لا تكلفني نفسك هذا الشعور بالاعتذار يا توني، فالحق أنني ماكنت أحلم بأن أكون سعيد الخط إلى هذه الدرجة، ولكن دعيني أعرف لو غيرت رأيك، هذا كل ما أطمح فيه.»

والتفت إلى الجياد وشارت توني تجاه الكوخ، كان الأمر يصبح يسيراً لو أنها اختارت أن تسافر مع دومينيك إلى الطرف الآخر من العالم حيث لا ترى غراي ولا يراها ثانية، وابتسمت لنفسها في سخرية.



«عرضان بالزواج في يومين متتاليين! لا بد أن شيئاً ما قد حدث عندما وافقت على أن تتقدم بطلب العسل إلى شركة «أريترز».

ورحبت بها أن كأنها صديقة العمر، كانت أكثر شباباً وحيوية وكانت عينها تلمعان، وقالت:

«إنني سعيدة لرؤياك يا توني! تعالي وإجلسي! عتيدي الكثير من الأخبار لك».

ولمحدثت عن كيف وعن نفسها. وكان من اليسير أن تتابع القصة كما حكنتها أن ... كيف تقابلنا في المدرسة وكيف تلاقنا في البداية وكيف قاوما الاغراء لأن كيف كان متزوجاً وكيف باحا لبعضهما بالحب.

وقالت:

«لو كان هناك أطفال أو لو أن زوجة كيف كانت حقاً تريد لتخلصت منه ولكن ليس لديه أولاد، وساءت حياته مع زوجته إلى حد كبير. ولقد ورثت زوجته مبلغاً طائلاً وطلبت إليه أن يترك عمله كمدرس للفنون، فلديها مشروعات ضخمة وحاولت اقتاعه بالذهاب إلى لندن أو الخارج لتعيش الحياة التي تريدها. ولكن كيف لم يوافق ونشأ بسبب ذلك شجار دائم ولا تتصورين كيف جعلت حياته هماً ومذلة، ولكنه شخص مخلص، ولقد صبر على ذلك سنوات حتى تقابلنا ووقعنا في الحب، ولم يكن يستطيع أن يتركها حتى ذلك اليوم رأيته في هناك، واخطأني... فظن أنك أنا... تذكرين ذلك؟ كانت تلك نقطة التحول فلقد اقتنع أن حالنا لن يستمر على ما كان عليه وأن الناس سوف يعرفون وتنتشر الشائعات في المدرسة».

وحاولت توني أن توضح:

«ولكن...»

وقاطعتها أن تقول:

«لم يكن يظن أنك تفشين سراً، ولكن ذلك فتح عينيه على ما يمكن أن يحدث، وجعله يتخذ القرار بأن يضع حداً للموضوع. ووصل الأمر إلى عراك كبير عندما أخبر زوجته، ولكنها تركته وذهبت إلى أصدقائه لها في لندن وسوف يحصل على

حريته في أقرب فرصة ثم نتزوج، ليس عندك فكرة يا توني، إنني أحس كأن حلاً كبيراً انزاح عن ظهري».

وبدت الدموع في مقلتيها.

وقالت توني في اخلاص:

«أنني سعيدة جداً لك، وكنت أظن أن هناك شيئاً يجعلك تبدين مكتئبة بعض الشيء».

وعلفت أن:

«كان أمراً صعباً ولكنني أعترف أن أسوأ ما هناك أنهى بالنسبة إلى كليتا، قد يلام الرجل دائماً عندما تكون هناك امرأة أخرى ولكن الناس لا يأخطون في اعتبارهم أن المرأة أحياناً تكون جعياً لا يطاق لرجلها. كما حدث مع غراي».

لم تستطيع توني أن تفهم ماتعنيه وظلت ليرته تحاول أن تستجمع خيط الحديث، ثم قالت:

«كنت أظن أنه زواج مثالي ولذلك لا يستطيع غراي أن ينسى ميدج».

وسألته أن في سخرية:

«هل قال لك ذلك بنفسه؟»

«لا! لم يقل ذلك، العم بنيامين هو الذي قال أعترف أنه ذكر أن غراي شعر بخسارة فادحة جعلته يشعر بالمرارة ويتحول إلى إنسان صعب المراس، وهذا يفسر سلوكه في معاملتي».

وفكرت أن مليا، ثم قالت:

«كنت أعرف ميدج جيداً، كبيرنا معاً، ولم تكن تنسى أبداً أنها أميرة صغيرة، كانت كل ما بقي لبنيامين من أسرته ودللها وأعطاها كل ما طلبته بل أفسدها بتدليله ولم يرها على حقيقتها، كانت أنانية قامة وكنت أظن أنها ستغير عندما تزوجت غراي، ولكنها ظلت تزهر أمامي بأنها تلوي غراي كما تلوي أصبعها الصغير رغم أنه كان يحبها ويعطيها كل ما تطلب وكانت تعامله كما تعامل بنيامين».



وابتست أن في كآبة وقالت:

هولكتني اعتقد أن غراي كان نطاً مختلفاً قاماً ولأنتي أعرف ميدج فقد كان  
يوسمي أن أفتيل ما يدور... ولقد حدثتني ذات مرة ، من باب المباحة أن لها  
طريقتها في أن تجعله يفعل ما تريد، كان ذلك أكثر ما يمكن أن تصنعه امرأة  
برجل.

وهست توني:

«هل تعين أنها كانت...»

ونظرت إليها أن وقالت:

«كانت تحرمه من عواطفها... لم تكن ميدج تهتم بالآخرين على الإطلاق بل  
كانت تستغلهم، استغلت دومينيك بهذه الطريقة أحياناً وتبعث في أن تجعل  
غراي يضييق به.»

وعلمت توني:

«نعم لاحظت ذلك...»

كان كل شيء يتضح الآن، وواصلت توني:

«ولم يكن بنيامين يعرف شيئاً عما يدور.»

وهزت أن رأسها وقالت:

«وكانت ميدج في عيية الكمال ذاته وكانت تحرص على أن تبقى كذلك، ولم  
يكن غراي يريد أن يعرف الرجل العجوز الحقيقة، وتحول بعض الوقت إلى  
رجل أكثر صمتاً وكآبة بينما صارت ميدج أكثر طيشاً واهتماماً بالمظاهر كان أحد  
أصدقائها سائق سيارة سباق، وكان ذلك عندما اشترت السيارة التي قتلتها إذ  
أرادت سيارة فخمة قوية تلفت النظر وأخيراً وجدت الشيء الذي لم تستطع أن  
تسيطر عليه.»

والتمزت توني بالصمت، ودار عقلها عاجزاً عن أن يتكيف للموقف الذي  
انقلب فجأة رأساً على عقب، ونظرت إليها أن وقد انتابها القلق وقالت:

«سألوم نفسي لأنتي تكلمت! كنت أشعر أنك ينبغي أن تعري. وربما يحبك أن

تعري...»

وقالت توني في بطن:

«إنه يعني قاماً... ولكن سامحيني يا أن لا أريد أن نتحدث عن ذلك الآن،  
هل أكون قليلة الثقة إذا طلبت منك ألا أبقي أكثر من ذلك؟»

ونظرت إليها أن نظرة قلقة، وقالت:

«بالطبع لا... ولكنك ستأتين مرة ثانية.»

ووعدها توني بالزيارة، وودعتها، وسارت عبر الحديقة الجرداء وبدلاً من أن  
تفجع إلى البيت عبرت طريق السيارات ووجدت دربا غير مهمد تتشر عليه  
الأحجار والطين، وواصلت السير وهي لا تلاحظ ما يحيط بها، وأستولت عليها  
فكرة واحدة، لم يكن غراي يعيش عيشة خيال جامع، ولم يكن يحاول أن  
يتخيل أنها ميدج، ولم يكن يحب ميدج بل كان تقيماً للغاية معها، لو كانت  
أن صديقة فيا قالت... وامتلاً قلبها فجأة بالعطف عليه، لابد أن ظهورها خلق  
له موقفاً لا يحتمل، كان يحارب شبحاً يطارده من كل الجهات، وربما طلب الزواج  
منها ليرتاح من الشبح وأحست بأنها بدأت تفهم ولكن قليلاً. وازداد حبها له  
عصفاً الآن بعاطفة تملأ كل كيائها وطف في النهاية على هيئة بكاء، وأخذت تتعثر  
وهي تسير باكياً بوس غراي وبؤسها، والموقف الذي يوجدان فيه.

وأخذت تسير وتسير على غير هدى، وكانت هناك فكرة واحدة تسيطر على  
عقلها، كانت تحب غراي وعلى استعداد لأن تعمل أي شيء من أجله ولكنها  
بسبب وجه الشبه بينها وبين امرأة أخرى كانت عاجزة عن توفر له إلا التعاسة  
والقلق.

كانت تدرك بطريقة غامضة أن المطر يضاقط ولكن الطقس كان يتناسب مع  
حالتها النفسية... المزارع الجرداء... والشجيرات الخالية من الأوراق والشجاء  
الروحى.

وجاءها الحل من حيث لا تدري وأوقفها ساكنة في خطواتها، لو أنها تزوجت  
دومينيك وذهبت معه إلى استراليا فإن غراي سيتخلص إلى الأبد من



متاعبها ولن تكون خدعت دومينيك فهي على استعداد لتعطيه كل ما يشده وربما تعلمت أن تحبه بمضي الوقت. ستفتقدها أمها بالطبع ولكنها لن تقف في طريقها فضلاً عن أنها سعيدة بالحياة في الطرق البيضاء تهتم بالبيت وبينيامين وإذا انتقل المصنع إلى هنا فستتاح لها الفرصة لاشباع مواهبها في التنظيم. وأما عن بينامين لمسيحون بعض الشيء. ولكنه تعلم الحكمة من حياته الطويلة ويعرف أنه من المحال أن يحتفظ الإنسان إلى الأبد بمن يحب... نعم! هكذا فكرت توني وقد خف توترها بعدما اتخذت القرار الذي بدا أنه المخرج الوحيد وكانت على استعداد لأن تقضي به إلى النهاية وكانت تبحث عن دومينيك الآن لتخبره. والتفتت وبدأت تجري لتنفذ ذلك على الفور. وأخذت تجري وتجري وهي تلهث بعض الشيء وقد خفضت رأسها حتى لا تتعرض للمطر المنهمر وهي تمسك بياقة معطفها حول رقبتها.

وعندما تذكرت ما حدث بعد ذلك بعدة أيام عرفت أنه كان من غير الممكن أن تنفذي السقوط في منطقة حجرية غير مستوية وتنطرح أرضاً على معدتها في منطقة طينية ولكن سوا الحظ وحده هو الذي جعلها تصطلم ببعض الجذور القوية البارزة واشتبك مفصل قدمها ولم تستطع أن تخلص نفسها. لم تصدق في أول الأمر أنها أصيبت بالفعل وكانت تعتقد أنها خلال دقيقة أو دقيقتين سوف تجد الحركة الصحيحة التي تخلص قدمها وتسمح لها بالحركة. وجازلت أن تحرك قدمها بحذر ولكنها بقيت محسورة.

لم يكن ما حدث شيئاً متوقفاً إذ كان لا بد أن تعود إلى الطرق البيضاء لتقابل دومينيك ولتخبره بما قرره وصارعت لتحرك جسمها مستندة على مرفقها. ولكنها لم تستطع أن تتحرك إلا حركة بسيطة إلى اليسار وعندما حاولت أن تتدحرج في الاتجاه المضاد وجدت أن جسمها كان مقيداً تماماً بساقها اليمنى. وأخيراً دعت يديها إلى أعلى وذراعيها مشيناً وتمكنت بكل قوتها أن تنزعج على الأرض إلى الأمام كما تفعل الحية وخيل إليها أنها كسرت قدمها.

وسقطت على الأرض تبكي في صمت وغضب بانس بسبب سوء الموقف.

وتصلب وجهها والتصقت به خطوط من العطين بدت كأنها أجزاء من شريط لاصق. وأحست بطعم التراب المبتل في فمها وحاولت أن تنظفه ولكن يديها كانتا ماطختين بالعطين كذلك. كان المطر ينهمر بلا رحمة وتشرىبت ملابسها بالماء وانساب منه المطر على عنقها.

ولم تكن تعرف سوى أنها في العراء الباردة بين الحقول الجرداء. الرطبة وأنها وقعت في شرك حقيقي.

ولم يكن للزمن معنى لقد رقدت هناك يائسة قماما تحاول أن تخلص نفسها بين لحظة وأخرى ولكن جهودها كان ينضمحل المرة تلو الأخرى وأخيراً كفت عن المحاولة. وأخذت تصرخ ولم يكن ثمة من يجيب سوى هبات المطر تهطل بطريقة لا تنقطع. ترى هل أحس سكان الطرق البيضاء بغياها؟ متى أخذوا يحسون بذلك؟ وحتى لو أحسوا فهل يعرفون أين يبحثون عنها؟ وارتعدت في عصبية. كان من الممكن أن تموت من التعرض للبرد! وفهقت بطريقة هستيرية. كان قد أغشى عليها لفترة فقد وجدت أن الظلام بدأ يرخي سدوله عندما لمحت عينيها. ورفعت رأسها في وهن. ورأت ضوءاً خافتاً على البعد. ربما كان ضوء كوخ. أن. وارتسمت أمام عينيها صورة الغرفة المريحة والنار والدفء. وبدأت تبكي من جديد بدون أن يسمع لها صوت والدموع تسيل على وجنتيها لتختلط بهبات المطر...

ورأت ضوءاً آخر يتحرك ليقترب منها. وسمعت صوتاً ينادي:

«توني! توني!»

وشهقت نفسها عبقاً. وصرخت في صوت متهدج.

«هنا! أنا هنا! أدركوني! أدركوني!»

كان الذي أجابها صوت غراي. جاء كمعجزة. غراي الذي ركع إلى جوارها. ومن وجنتها الباردة المبثلة وقال:

«اطمئني لا بأس.. ياتوني! انلي معك...»

وأخذ ضوء الصباح يتحرك فوقها. وأحست بشيء يقطع إرباً ذلك الشيء.



الذي كان يسك بمفصل قدمها، وأحست بالخلاص أخيراً فتدحرجت على ظهرها ووقدت عاجزة عن الكلام، وحملتها الذراعان القويتان تجاه الضوء الخافت البعيد.  
«ما الذي جعلك تفعلين هذا يا عزيزتي توني؟ تسيرين في الحقول أثناء المطر وحده؟»

شيء ما كان يسك بمفصل قدمها، وأحست بالخلاص أخيراً فتدحرجت على ظهرها ووقدت عاجزة عن الكلام، وحملتها الذراعان القويتان تجاه الضوء الخافت البعيد.

«ما الذي جعلك تفعلين هذا يا عزيزتي توني؟ تسيرين في الحقول أثناء المطر وحده؟»

وأخذت السيدة وارين تروح وتحجيء في الغرفة تفرد الوسائد وتعديل حرارة المدفأة وقالت:

«قلقت أنا وبنيامين عليك، فلما في أول الأمر أنك تزورين أن وعندما ذهبت إلى الكوخ وقيل لي أنك انصرفت منذ ساعة لم أعرف كيف أتصرف.» وأراحت توني رأسها إلى الحلف، وابتسمت، فبعد أن أخذت حماماً ساخناً وكوباً من الحليب الساخن أحست بالراحة والاسترخاء... كان لبشرتها وهج دافئ. وانسدل شعرها الذي تخلص من الطين على الوسادة وجف في مجلس الساتان الحصري المتلألئ، وكان شيئاً طيباً أن تحس بأنها إنسانة من جديد كتبت لها الحياة ولن تموت.

وأخذت تشرح القصة من جديد للمرة التي لا تعرف عددها:

«كنت راجعة يا ماما ولستو حظي حشرت قدمي في ذلك الجنزير...»

ولم تذكر أنها كانت تجري... تجري بوحشية وبغير اكتراث لتعثر على دومينيك ولتخبره أنها تقبل به زوجاً ولتقطع إلى الأبد تلك الرابطة التي وجدت أنها وغلراي ترتبطان بها في مصير مؤسف.

وقالت أمها في لهجة فيها شيء من التأنيب:

«مازلت أعتقد أنك أخطأت إنني ذاهبة لأعد لك العشاء وسيكون عليك أن

تأكله كله ثم تتلعي نوماً هادئاً وإذا لوتفت درجة حرارتك ستطلب الطبيب في الصباح لمحضصك.»

وانتهت إلى الباب تقول:

«سوف ينتهي بنيامين ويرالك، كان قلقاً عليك.»

واضطجعت توني وأغلقت عينيها وسمعت طرقة على الباب بيتا كادت تستغرق في النوم.

وابتسمت توقعاً لدخول بنيامين وأسدت جفنيها وقالت:  
«أدخل.»

ولتحت عينيها ونطقت:

«غلراي؟ كنت أظن أنه العم بنيامين.»  
وعلق قائلاً:

«سمع لي أن أنوب عنه... هل لديك اعتراض؟»  
وأحست بالحجل وقالت:  
«لا... بالطبع... لا.»

وجلس إلى جانب فراشها يقول:

«كيف حالك؟ هل أصابك أي ضرر؟»

كانت لهجته ودودة وبدأ أنه نسي كيف الترقا في الليلة السابقة.  
وأجاب:

«إنني بخير... ولا يوجد ضرر حقيقي... مجرد احتكاك وكدمة خفيفة في مفصل القدم، وقامت أمي بعمل الاسعافات اللازمة، لا بد أن أقدم لك الشكر لاتقاضي من تلك المقبرة الغارقة، كيف عدت؟ وكيف عرفت مكاني؟»  
واستند إلى كرسيه وقال:

«الاجابة على السؤال الأول - رجعت في سيارتي ورجع الفضل إلى الشرطة في العثور على مكانها شمال وانفورد في السادسة والنصف من صباح اليوم وعدت بأسرع ما أستطيع لأنني وددت أن أحدث اليك، وبالنسبة إلى السؤال الثاني -



عندما لم أجدك عند وصولي بحثت عنك في كوخ أن وعرفت الوقت الذي تركت فيه الكوخ وحسناً... لا بد أن أعترف أنني أضعت وقتاً لا بأس به في الوصول الى مكانك، وكانت أمك وبنيامين يبحثان أيضاً.

وتنظر اليها نظرة حادة وقال:

«لأحاول مرة أخرى أن أخرجني وحدك كما فعلت، أيتها الشابة الصغيرة»

وقالت في وهن:

«أسفة... سببت لكم المتاعب»

«لعل...»

وتبع ذلك فترة صمت طويلة قال بعدها:

«تحدثت الى أن..»

وعقلت توني:

«أوه!»

«وتحدثت الى... وكانت مضطربة قليلاً... وظننت أنها ربما كانت غير حكيمة عندما ناقشت أموراً تمت الى حياتي الشخصية معك، لكنني طمأنتها.»

وقالت للمرة الثانية:

«أوه! حسناً»

وتركه هدوء فجأة وضرب ذراع الكرسي براحته يده وقال في حدة:

«لماذا خرجت تضربين في الحقول بتلك السرعة بعد أن سمعت حديث أن؟»

وبللت شفتيها، وقالت:

«كان علي أن أفكر...»

وخفضت من صوتها، وقالت:

«فهمت كل شيء على عكس ما كان الواقع...»

واستجمعت شجاعته، وقالت:

«أحبني بنيامين وأرادني لوجه الشبه بيني وبين ميدج، وأنت أبديت كرهك ومقاومتك لي وكنت أظن أن ذلك راجع الى أنني كنت كالحلوى المرة التي تذكرك

بكل ما فقدته، وأنتك في كل مرة تراني كنت تذكر سعادتك معها، وظننت أنك كنت تغالطني لتغمر عينيك وتتخيل أنها بين ذراعيك... وكنت أمل أنك بمرور الوقت تتقبل خسارتك كما يفعل الناس وربما صرنا أصدقاء بعد ذلك وعملنا سوياً.»

وأوماً في بطنه قائلاً:

«ثم اكتشفت اليوم في فترة ما بعد الظهيرة أن ميدج لم تكن الملاك الذي رسم بنيامين صورته لك وجعلك تصدقينه! الحقيقة هي العكس تماماً...»

وقالت في بساطة:

«نعم... يا غراي... إنني أسفة... لم أكن أفهم... ولكنني أفهم الآن قليلاً، انني أفهم لماذا يعتبر وجودي قريباً منك شيئاً مؤلماً لك وشيئاً لا يحتمل، وعندما كنت أفكر أن قربي منك يذكرك بالحب والسعادة كان ذلك أمراً صعباً بما فيه الكفاية ولكنه كان محتملاً، أما اذا كان كل ما أذكرك به هو الاحباط والبؤس، فلا أمل أن يتواجد كلانا معاً، وهناك بين الحقول توصلت الى قرار، قررت أن أحل المشكلة بأن أذهب الى مكان بعيد»

«سوف ترحلين؟ والى أين؟»

وحاولت أن تجعل وجهها يبدو هادئاً وعادياً بجهود كبير وقالت:

«الى الطرف الآخر من العالم... دومينيك ذاهب الى أستراليا وطلب الى أن أتزوجه وأن أذهب معه الى هناك.»

«هل تحببته؟»

«أنا على ثقة من أنني سأحبه...»

«ولماذا اذا تعتقد أني طلبت الزواج منك؟»

وانسعت عيناها، وقالت:

«أعتقد...»

ثم توقفت وقد احمرت خجلاً.

وقال لها:

«أوضحني!»



«اعتقدت أنك كنت تبحث عن مهرب يجهز لنا أن نبيت معاً في الشقة بدون أن تتكث بوعدهك لبنيامين».

وقال في مرارة:

«نعم! أظن أنني استحق ذلك! هات ما عندك! وماذا أيضاً سول لك عقلك الصغير عني؟»

«ظننت أنك خرجت لتقضي الليل مع مارشا فقد بدا بيشكاً وه كبيراً»  
«بالفعل بيننا هذا الود، فمارشا امرأة عظيمة، ولكن هناك رجل واحد يستطيع أن يقضي الليل مع مارشا، ذلك الرجل هو زوجها بيتر، ولقد انتهى لثوه من تصوير فيلم في روما. أنه صديق كبير لي وسوف تحببته... لا... أمضيت الليل في النادي ألعب نفسي لأنني كشفت عما في نفسي وطلبت أن تزوجيني».

وقالت في صوت خافت:

«لم يحدث خطأ كبير».

وقال في خشونة:

«بالطبع كان في ذلك خطأ كبير... كنت غير موثق في الليلة الماضية بدرجة لا تصدق ولا عجب في أنك رددتني بخفي حين»  
«ولكنك لم تكن جاداً».

كان لا يزال ينظر إليها وقال:

«لم أكن جاداً في حياتي كما كنت بالأمس ولكن التوقيت لم يكن مناسباً».

«اذن لماذا خرجت بتلك الطريقة؟»

وابتسم ابتسامة ضئيلة وقال:

«لماذا؟ ألا تحسبن بما تثيرينه من اغراء أيتها الشابة؟ كنت أود أن أبقى وأترافع عن نفسي ولكنني بشر يا حبيبتي وكنا وحدنا في شقتي وكان كل ما أستطيع هو أن أتصرف بأسرع ما يمكن... وهذا ما فعلته...»

كانت تجلس في السرير المغطى بالملاءات البيضاء وقد حبست أنفاسها في ترقب وانتظار، وقال غراي:

«أنتي على ثقة من أنني لست شخصاً يحب مثل دومينيك ولكن هل بوسعك أن تحبيني؟ لأنني أحبك وأريدك معي ولا أستطيع أن أبقى بدونك»  
وأطلقت أنفاسها في تنهيدة طويلة وترقرقت الدموع في عينيها وقالت في صوت أبح:

«لا أستطيع أن أحاول ذلك... ظلت أقاوم من أجل ألا أحبك منذ أول مرة التقينا فيها»

وأخذ وجهها بين يديه وصار ينظر بعين في عينيها وقال:

«عيناك لفتان عن عينيها لأن عيناك فيها الصدق والثقة والكرم، ولقد عرفت منذ البداية أنك لست مثلها ولكنني كنت أحاول ألا أصدق نفسي فلقد تعقدت منها بشكل كبير عبر السنين».

وعانقها وقال:

«نجحت في أن تحل هذه العقدة في أسابيع يا حبيبتي...»

وعرفت بالتأكيد عندئذ أنه ليس هناك ما تخشاه من الماضي وقد يتحدث إليها عنه في يوم من الأيام إذا ما رغب في ذلك ولكنها لن تستفسر أو تسأل بحال من الأحوال.

وعاد إلى كرسيه من جديد وأخرج من أحد جيوبه الخارجية صندوقاً صغيراً من الجلد وقال في ابتسامة:

«لتطبق مرة واحدة الأسلوب الصحيح والرسميات، انتهزت فرصة ذهابي إلى برنستريت لأحضر هذا قبل أن أتصرف».

وصمت عن قصد، وأضاف:

«كدليل على الأخلاص والصدق».

وفتح غطاء الصندوق ليكشف عن خاتم يتكون من ماسة واحدة شكلت بهلزة جملها تتلأل وتشتع نارها أمام عينيها المنبهرتين.  
وقال غراي:



«إنها ماسة حفية، انني لا أحب التقليد».

وفقدت توتني قدرتها على الكلام. وأخذت تحقق بدون أن تتلق بشي... إلى الحاتم الجميل بينما أخذ غراي يضعه في أصبعها. كان الحاتم مناسباً تماماً للأصبع. وقال:

«هل يعجبك؟ مناسب؟»

«نعم».

ولم تستطع أن تحبس الدموع لفترة أطول فقد كان يوماً منهكاً. وأخذ غراي مسح عينها حتى عادت الابتسامة إليها ثم قبل أصبعها وعليه خاتم ورقع رأسه وعيناه ترقصان في خبث وقال متأملاً:

«انه لكرم كبير... ها أنت أخيراً هنا حيث حلمت بالحياة معك... وبما أنك تهدين في حالة صحية واهنة فأنني أكتفي بأن أقبل يدك ولكن انتظري يا حبيبتي... أرجو أن تنتظري فإني أعرف فندقاً صغيراً يطل على بحيرة وزهور الربيع في المروج حوله في كل مكان».

غمرت البهجة والفرح لتزيل عنها الشعور بالتعب ولتملأها بالحياة والطاقة وجلست وقد مدت كلتا يديها نحوه. كانت تريد أن تعطي وتعطي وألا تحبس شيئاً تدخره للسنوات المقبلة.

وقامت وهي تعانقه:

«شملتنا غناية السماء، أهو أول يوم تزه فيه أزهار الربيع حول ذلك المكان؟»